

الأب إيليّا متري

الإنسان الجديد

نحمد الله أبا ربنا يسوع المسيح، كلما صلينا من أجلكم، على ما بلغنا من إيمانكم بالمسيح يسوع ومحبتكم لجميع الإخوة القديسين من أجل الرجاء الذي خبأه الله لكم في السماوات، وهو الرجاء الذي سمعتم به في كلام الحق، أي في البشارة التي وصلت إليكم كما وصلت إلى العالم كله، فأخذت تثمر وتنتشر فيه كما تثمر وتنتشر بينكم منذ سمعتم بنعمة الله وعرفتموها حق المعرفة. وهذا تعلمتموه من أبفراس، رفيقنا الحبيب في العمل لله والخادم الأمين للمسيح عندكم. وهو الذي أخبرنا بما أنتم عليه من محبة في الروح.

لذلك نصلي كل حين من أجلكم، منذ سمعنا ذلك عنكم، ونسأل الله أن يملأكم بمعرفة مشيئته وبالحكمة والفهم الروحي، حتى تسلكوا في حياتكم كما يحق للرب ويرضيه كل الرضا وتثمروا كل عمل صالح وتنموا في معرفة الله.

تعاونية النور الأرثوذكسية
للنشر والتوزيع م.م.

الإنسان الجديد

الأب إيليّا متري

الإنسان الجديد

تعاونيّة النور الأرثوذكسيّة للنشر والتوزيع م.م.

التنسيق وتصميم الغلاف إيلي أبو هاشم
أنجزت مطبعة الينبوع طباعة هذا الكتاب
في كانون الأوّل ٢٠١٠

دليل الكتاب

مقدّمة

«الإنسان الجديد» هو الإنسان الذي يتّخذ الربّ يسوع، أو أحد خلاّن يسوع ممّن اقتدوا به، قدوةً حسنةً. الأب إيليّا (متري) يحاول، في تضاعيف هذا الكتاب، رسم صورة «الإنسان الجديد» عبر استنطاقه آيات الكتاب المقدّس، واستلاله العِبر الممكنة للإنسان المعاصر، كي يتمكّن من بلوغ «ملء قامة المسيح». لا يُرضى الكاتب بسوى أن يصبح كلّ قارئ من قرّائه مسيحًا آخر، أو مريمَ أُخرى، أو بولسَ آخر...

في مسامراتنا مع بعض الإخوة، نلاحظ، دائمًا، هاجس الأب إيليّا بضخّ الحياة في آيات الكتاب المقدّس. الآيات المقدّسة، إذا لم يتعهّدها المؤمنون، تصبح حبرًا جافًّا على ورق رثّ. وحده، الالتزام بكلّ كلمة يجعل الحبر الجافّ دمًا يغلي بالغيرة، ويجعل الورق الرثّ جسدًا ينبض بالحياة. وهذا ما نلمسه في «الإنسان الجديد»، إذ نعاين هذا الهاجس يرافق الكاتب من الدفّة إلى الدفّة. فالأب إيليّا يرينا أنّ كلّ كلمة جديرة بأن تُحيا.

تنبع مقالات «الإنسان الجديد»، بلا لبس، من الفكر المسيحيّ الأخلاقيّ. فغالبيّة هذه المقالات تتحدّث عن سلوك المسيحيّ تجاه أخيه الإنسان، أيًّا يكن انتماؤه، هذا السلوك الذي يتأسّس على التعليم الإلهيّ والكلمة المحيية والأحداث الخلاصيّة التي جرت مع الربّ يسوع. كما يتأسّس هذا السلوك على العقيدة، فكلّ عقيدة من دون ممارسة على أرض الواقع اليوميّ تصبح عقيدة عقيمة، وتبطل أهمّيّتها في سبيل الخلاص.

هكذا، على سبيل المثال، إنْ لم يحيَ المسيحيّون الوحدة والتنوّع في علاقتهم بعضهم ببعض، يصبح الحديث عن الوحدة والتنوّع في الثالوث الأقدس عقيمًا وبلا نفع للمؤمنين.

نلاحظ، أيضًا، أنّ الأب إيليّا يربط العبادات كلّها بالسلوك الذي يليها بعد الانتهاء منها. فالأسرار الكنسيّة نحياها يوميًّا من تجديد غير منقطع للمعموديّة، وعيش سرّ الشكر عبر التزامنا سرّ الأخ الفقير، والإصرار على الحفاظ على ختم موهبة الروح القدس، والتوبة إلى الله في سرّ الاعتراف، والحفاظ على عهد الزواج بالثبات في سرّ الحبّ. وتحتلّ الصلاة حيّزًا كبيرًا في عدد من المقالات، الصلاة «التي تدعم الصلاح وفعل الخير». ويذهب الأب إيليّا إلى أبعد من مقتضيات الصوم الذي لا يكفي بذاته، فيتحدّث عن التقشّف الدائم، أي أن يحيا المؤمنون صومًا دائمًا «حبًّا بالذي افتقر من أجلنا».

يسود الفكر الكنسيّ يراع الأب إيليّا. فهو يرى، في الجماعة، حصن الإيمان والتقوى ومحبّة القريب. وكلّ عمل فرديّ يقوم به أحد المؤمنين إنّما يندرج في إطار بناء الجماعة المؤمنة التي تتشكّل جسدًا للمسيح وهيكلاً للروح القدس. من هنا، تتضافر المواهب التي يوزّعها الروح الإلهيّ في خدمة الجماعة وخلاصها عبر شدّ أواصر المحبّة في ما بينها. وتأتي الشركة الكنسيّة في الصلاة وكسر الخبز والمشاركة المادّيّة، «وكان كلّ شيء بينهم مشتركًا»، لتجعل من الأفراد وحدةً حقيقيّةً تزيل الفروق بين أهل الجماعة الواحدة. هذه هي الكنيسة التي يتوق إليها الأب إيليّا في «الإنسان الجديد».

لا يبتعد الأب إيليّا عن الواقعيّة في مقاربته لكلّ المواضيع التي عرض لها في مقالاته. فالذي يقوله ليس عسيرًا على المؤمنين تحقيقه وعيشه في حياتهم اليوميّة. قوله يحتاج فقط إلى إرادة صلبة يبني عليها قارئه أفعاله وممارساته مع أهل بيته ومع القريب الذي يلتقيه في دروب حياته. ويمجّ الأب إيليّا قول القائلين بأنّ كلام الإنجيل يستحيل تنفيذه، لأنّه كلام مثاليّ لا يستطيع البشر الارتقاء إليه. هؤلاء يعطّلون الإنجيل، وينسون أنّ الربّ نفسه قال إنّ عليهم أن يدخلوا من الباب الضيّق. الإنجيل، كما يقدّمه الأب إيليّا، قابل للتحقيق، وهو في متناول كلّ نفس على الأرض.

حسنٌ أن ينهي الأب إيليّا كتابه بثلاث مقالات عن الثلاثة الأركان المسيحيّة، الإيمان والرجاء والمحبّة، «وأعظمهنّ المحبّة» (كورنثوس الأولى ١٣: ١٣). فكلّ عمل يقوم به المؤمنون ينبغي له أن يتأسّس على هذه الثلاثة الأركان. أن تؤمن بالله يعني ألاّ تفقد رجاءك به، فتحبّ بلا مقابل. هي أركان ثلاثة مترابطة متلازمة لا يمكن تفكيكها، إنْ انهار واحد منها انهارت كلّها.

نحن ننتظر، بشغف، العدد الجديد من نشرة «رعيّتي»، التي يرفدها الأب إيليّا بمقالات تمسّ واقعنا اليوميّ وحياتنا الروحيّة والعباديّة. فنقرأ مقالاته بصفتها تأوينًا لكلمة الله لنا، نحن أبناء هذا العصر الصاخب، فنتبنّاها سبيلاً للتقدّم في مسيرتنا لملاقاة الربّ يسوع «بلا حزن ولا خزي» في يوم الدينونة.

الأب جورج مسّوح

تمهيد

«الإنسان الجديد» عبارة يصف بها الرسول كلّ مؤمن لبس الربّ في معموديّته، أي «ذاك الذي يجدَّد على صورة خالقه، ليصل إلى المعرفة» (كولوسّي ٣: ١٠). ولقد اخترناها عنوانًا لمجموعة مقالات، تبحث في بعض آيات أو مقاطع كتابيّة، ظهرت كلُّها، ما بين العامين ٢٠٠٤ و٢٠٠٦، على صفحات نشرة «رعيّتي»، التي تصدرها أبرشيّة جبيل والبترون وما يليهما، للروم الأرثوذكس (جبل لبنان).

ما سيلاحظه القارئ أنّ ما اخترنا التعليق عليه متنوّع المواضيع. وهذا التنوّع فرضه حبّ التنوّع أوّلاً، وتاليًا بعض أوضاع تزامنت والكتابة فالنشر. ولربّما يكون ما حرّكنا إلى وضع هذه الصفحات، وما يحكمها كلّها، هو الإطلالة على الصفات المبرورة التي يرغب الله في أن يتّصف بها المؤمنون، الذين تجدّدوا في معموديّتهم، أيًّا كان عمرهم أو جنسهم أو موقعهم.

هذا يستدعي إقرارًا واثقًا بأنّ كلّ ما في هذه الصفحات من تعليم راضٍ يعود الفضل فيه، أوّلاً، إلى التربية التي اختصّت بها، في كنيستنا، حركة الشبيبة الأرثوذكسيّة. فهذه التربية الفريدة والخلاّقة تحاكي التراث القويم بغناه المتعدّد الوجوه، ولا سيّما بعلمها وموضوعيّتها وقرارها ونهدها إلى استقرار كلمة الله في حياة المؤمنين جميعًا. فأعضاء التيّار النهضويّ، لا سيّما في الاجتماعات الأسبوعيّة التي تعقدها فرقهم، يلتفّون حول الكلمة

قراءةً وتمحيصًا. وهدفهم الراهن أن يتزوّدوا من الحقّ، ويُحكموا التصاقهم في كنيستهم، ويقدروا على خدمة الشهادة لله في العالم. عصب هذا كلّه، عندهم، أن يوافقوا، في سعيهم وجهادهم، بين الكلمة والحياة. وهذا، واقعيًّا، يفوق كلّ تعامل فكريّ مجرّد. فللكلمة هدف ثابت، وهو أن تتبنّى ما أتى به تراثنا في توضيحها، وتحاول، بنعمة الله التي وُهبتها، أن تشبهها في كلّ ما تقوله، وتعمله.

معنى ذلك أنّ أيّ مقاربة للكلمة الإلهيّة لا يمكن أن يوصلنا إلى صحّة فهمها ما لم نختر العمق، أي الاندماج في حياة كنيسة تؤمن بأنّ الجدّة تستحيل بعيدًا من معاشرة الكلمة يوميًّا والبحث عن معانيها، لا سيّما كما يقدّمها الإخوة المعتبَرون. فالعمق، كما يفيد واقعيًّا، هو أن يركن المؤمن إلى فهم الجماعة الكنسيّة، ويتبنّاه بعونها. وهذا يفترض تعاونًا. والتعاون اعتراف بأنّ الربّ سلّم جماعته «كلمته الصالحة» ومعناها في آنٍ واحد. وهذا يوحي به ما فعله سمعان بطرس في حادثة الصيد العجيب (لوقا ٥: ١ - ١١). فإنّه، بعد أن طلب الربّ منه أن يرمي شباكه في العمق، أطاع هو وَمَنْ معه. وبعد أن «أصابوا من السمك شيئًا كثيرًا...، أشاروا إلى شركائهم في السفينة الأخرى أن يأتوا، ويعاونوهم».

لا نريد بهذا أنّ الكلمة المسلَّمة إلى الجماعة معانيها جامدة. فَمَنْ قرأ التفاسير المبرورة، التي قيلت في مسرى التاريخ، لا يشكّ في آنيّة الكثير منها. الكلمة المفهومة هي خير تعبير عن وضوح الله ونفعه المؤمنين في غير جيل. وهي، تاليًا، سند كلّ جدّة تبتغي الاستقامة في حيّز هذا الوجود، أو

تقولها بوضوح ظاهر. فمعظمنا يعلم أنّ خطر الجمود يقابله خطر أن نفهم الكلمة على هوانا. وهذا موجود في زماننا، كما كان موجودًا في غير زمن. وما يبعد الكلمة من هذا التشويه الجارح، هو أن نقارب الكلمة مقاربةً شخصيّةً على ضوء الإيمان بتراث كنيستنا الجامع والمجدّد.

كثيرًا ما يزعج الملتزمين كنيستهم أنّ بعض المؤمنين، اليوم، يميلون آذانهم إلى كلّ تفسير من دون أيّ تمييز. وإن قيل إنّ هذا يبيّن عطشًا إلى الكلمة وفهمها، غير أنّه لا يخفي انحرافًا معيبًا في واقع الالتزام! فالعطشان لا يشرب من أيّ ماء. ثمّة ماء حيّ. وثمّة ماء ملوَّث. هل هناك إثبات أعلى من أنّ الذين انفصلوا عن التراث الحيّ قد باتوا أقوامًا (وأحيانًا قيمانًا!) متناحرة؟ الوحدة والرضا والخلاص رهن بالماء المحيي الذي يتفجّر، باستمرار، في بركات شركة «الكنيسة الواحدة الجامعة المقدّسة الرسوليّة».

ما أرجوه هو أن تساعد هذه الصفحات كلّ الذين يطلبون الارتواء من ينبوع الماء الحيّ، وأن تذكّرهم بأنّ أعلى مقتضى المعاني، والبحث عن المعاني، هو الاندماج في حياة كنيستهم القويمة والقادرة على إحياء الذين يطلبون ماء الحياة الأبديّة حقًّا.

هذا أقوله فيما أرجو، أيضًا، أن يجد مَنْ يقرأون هذه الصفحات منفعةً لهم فيها، وأن تزيدهم ركونًا إلى كلمة الله، وأن تعينهم على أن يذكروا، دائمًا، أنّهم مخلوقون «على صورة الله في البرّ والقداسة»، ليسيروا بالطاعة، ويكونوا معًا، ويكون كلٌّ منهم، هذا «الإنسان الجديد».

المؤلّف

القدوة

مَن استقام في الخير، وفي سبيل الله القدّوس، كان قدوةً لغيره، أي تسنَّنَ غيرُهُ به، وفعل فعله. هذا ما اعتنى الرسول بولس بأن يطلبه من المؤمنين جميعًا، فحثّهم على أن يقتدوا به كلّهم معًا (١كورنثوس ٤: ١٦؛ فيلبّي ٣: ١٧، ٤: ٩؛ ٢تسالونيكي ٣: ٩)، وأن يقتدوا به كما يقتدي هو بالمسيح (١كورنثوس ١١: ١)، وبه وبالربّ (١تسالونيكي ١: ٦)، وبالله (أفسس ٥: ١)، وأن يقتدوا «بالذين بالإيمان والصبر يرثون الموعد» (عبرانيّين ٦: ١٢)، وبرؤساء الجماعة المؤمنة الذين «يخاطبونهم بكلمة الله» (عبرانيّين ١٣: ٧). وهذا ما جعله، أيضًا، يطلب، ولا سيّما من تلاميذه، أن يكونوا قدوةً لغيرهم من المؤمنين «بالكلام والسيرة والمحبّة والإيمان...» (١تيموثاوس ٤: ١٢؛ طيطس ٢: ٧). فالالتزام الصحيح هو أن يحفظ المؤمن كلام الله، ويظهره في سلوكه وحياته كلّها.

هذا ما أكّده بولس، في توبيخه اليهود، بقوله: «فإذا كنت يهوديًّا، وتعتمد على الشريعة، وتفتخر بالله، وتعرف مشيئته، وتميّز ما هو الأفضل بفضل تلقّنك الشريعة، وتوقن أنّك قائد للعميان ونور للذين في الظلام ومؤدّب للجهّال ومعلّم للبسطاء، لأنّ لك في الشريعة وجه المعرفة والحقيقة، أفتعلِّم غيرك، ولا تعلِّم نفسك؟ أتعظ بالامتناع عن السرقة، وتسرق؟ أتنهى عن الزنى، وتزني؟ أتستقبح الأصنام، وتنهب معابدها؟ أتفتخر بالشريعة، وتهين الله بمخالفتك الشريعة؟» (رومية ٢: ١٧– ٢٣). وهذا، بالطبع، يدين

كلّ جهل وكسل. فَمَنْ لا يعرف ما هي مشيئة الله الكاملة، لا عذرَ له. وَمَنْ يعرف، ولا يسلك، لا يقلّ شرّه عن الجاهل والمتكاسل.

معنى ذلك أنّ مَن التزم، لا سيّما مَن التزم، يقرأ الناس على وجهه صدق التزامه، أو هذا ما يجب. فالالتزام لا يخفى. لأنّ «المسيح الذي هو حياتنا» (كولوسّي ٣: ٤)، أي الذي أحيانا في معموديّتنا ويحيينا في مشاركتنا في الأسرار جملةً، ولا سيّما في القدّاس الإلهيّ، يطلب من المؤمنين الملتزمين أن يظهروا حياة الله، التي سكنتهم بوفرة، في كلّ قول وتصرّف، حتّى يستحقّوا مجده. فالإنسان المؤمن لا يعبد الله ضمن جدران كنيسته حصرًا. العبادة الحقّ تطلب، إلى جانب ذلك، أن نبيّنها، في الدنيا، للناس جميعًا، أي للذين يخصّوننا أهلاً وعائلةً وأصدقاء أوّلاً، وتاليًا للذين وضعهم الله على طريقنا ونشاركهم في المواطنيّة، وللعالم كلّه. ولا نبيّن القداسة، لنظهر نحن، بل ليظهر الله الذي ننتمي إليه، وينقاد إليه الذين أبهرهم نوره، واستحلوا جماله.

هذه هي القدوة الحقّ. والقدوة تُطلب من كلّ مسؤول في الجماعة المؤمنة أوّلاً. «كونوا قدوةً للقطيع» (١بطرس ٥: ٣). المؤمن «العاديّ»، وهو مسؤول طبعًا، إذا جار عن طريق الحقّ، ربّما لا يجرّ وراءه غيره، أو ربّما يؤذي القلّة. أمّا مَنْ كُلِّفوا مسؤوليّةً في الجماعة، إذا سها أحدهم أو شرد أو ضلّ، فسيكثر الساهون والشاردون والضالّون. وأقلّه، سيستسهل الكثيرون الخطيئة. وقد يُنكر الله بسببهم، أو يشتم (رومية ٢: ٢٤)! فَمَنْ كُلِّف إنجيلَ اللهِ وتوضيحَ معانيه، إن لم يطلب الطاعة من نفسه أوّلاً، لا يمكن أن يصدق

نصحه. أن يسمعنا الناس نقرأ كلام الله، ونتقن تفسير مقتضياته، أمر لا يعني، (على أهمّيّة ذلك)، عند الله كلّ شيء. الكلّ هو في الطاعة المستقاة من التعليم القويم. هذا ما قاله الرسول لتلميذه تيموثاوس، بعد أن أمره بأن يكون «قدوةً للمؤمنين»، إذ حضّه بقوله: «انصرف إلى القراءة والوعظ والتعليم»، إلى أن قال له: «انتبه لنفسك ولتعليمك، وواظب على ذلك. فإنّك، إذا فعلت، خلّصت نفسك والذين يستمعون إليك» (الرسالة الأولى ٤: ١٢– ١٦). فالانتباه المطلوب يتمّ بتوافق التعليم والحياة، أي بطاعة الله في تفصيل الحياة وتفاصيلها. ومن متطلّبات القدوة، أيضًا، أن يسهر مَنْ كُلِّف السهر على قطيعه، حتّى لا يتوه القطيع، أو يستميله الغرباء، ويسرقوا بعضه. فالقدوة تفترض حميّةً ورعايةً، أي غيرةً على شعب الله وحمايةً وقيادةً، ليتأصّل المؤمنون في محبّة يسوع ربّنا، ويثبتوا، وينموا، ويثمروا. فـ«كلام الله حيّ ناجح، أمضى من كلّ سيف ذي حدّين، ينفذ إلى ما بين النفس والروح، وما بين الأوصال والمخاخ، وبوسعه أن يحكم على خواطر القلب وأفكاره، وما من خَلْقٍ يَخفى عليه، بل كلّ شيء عار مكشوف لعينيه، وله يجب علينا أن نؤدّي الحساب» (عبرانيّين ٤: ١٢ و١٣). وهذا لا يوافقه أن تقتصر خدمتنا للكلمة على تردادها، أو تفسيرها، أو توزيعها وعظًا فحسب. فالمطلوب، دائمًا، أن نلحقها، ونتبع جريها، لتنفذ، وتثبت.

لقد أكّد كتابنا أنّ السلوك هو تعليم أيضًا. يقول الرسول للنساء اللواتي لم يظهر أزواجهن بعدُ طاعةً لكلمة الله: «وكذلك أنتنّ أيّتها النساء، اخضعن لأزواجكنّ، حتّى إذا كان فيهم مَنْ يعرضون عن كلمة الله،

استمالتهم سيرة نسائهم لما يشاهدون في سيرتكنّ من عفّة ووقار» (١بطرس ٣: ١ و٢). وهذا، في الواقع، ما تفترضه القدوة، وما يؤكّد بلاغتها.

أن نقتدي بالله وقدّيسيه، لهو أن نقتدي، أيضًا، بالذين حافظوا، في حياتهم، على برّ كلمته الحيّة بإخلاص كلّيّ. فالبرّ يتشدّد بالبرّ. والخيانة لا تُسحق من دون شهادة صحيحة ظاهرة. فإذا كان كثير من الناس قد «عاشوا حياةً باطلةً، وتعلّقوا بالزَيْف، وحالفوا الشرّ، وأقاموا قصورًا عنكبوتيّةً نسجها لهم خيالُ الشيطان» (المطران جورج (خضر)، الحركة ضياءً ودعوةً، صفحة ٨٣)، إنقاذهم يحتاج إلى مَنْ يكون قدوةً لهم في كلّ برّ، أي إلى مَنْ يكون، بنعمة الروح القدس، مرجعًا ومثالاً، حتّى يرضى الله، ويظهر نصره في العالم.

الصلاة الدائمة

ليست الصلاة ترداد كلمات باردة. لكنّها تنبع من معين محبّة الله التي «لنا في المسيح يسوع». وهي لم تكن ممكنةً، لو لم يتنازل الربّ، ويكشف نفسه، ويفدنا، ويعطنا كلّ نعمة تقودنا إليه، لنكلّمه، بثقة ودفء، ونكلّمه دائمًا.

الآية المختارة، التي تحثّنا على ولوج معترك الصلاة الدائمة، هي قولة بولس: «لا تكفّوا عن الصلاة» (١تسالونيكي ٥: ١٧). وهذه أتى بها، توًّا، بعد أن قال: «افرحوا دائمًا» (الآية الـ١٦). والثابت أنّ هدفه الأوّل، من هاتين الآيتين، أن يذكّر المؤمنين بأنّ الفرح، الذي هو عطيّة من عطايا الروح القدس (١تسالونيكي ١: ٦؛ انظر أيضًا: أعمال الرسل ١٣: ٥٢؛ رومية ١٤: ١٧؛ غلاطية ٥: ٢٢)، ورجاء المؤمنين الأخير (متّى ٢٥: ٢١ و٢٣)، لا يثبت، في القلب، إن لم يداوموا، في كلّ وقت، على الصلاة. وهدفه الثاني أن يؤكّد أنّ الفرح بالربّ هو غاية كلّ صلاة.

أن نداوم على الصلاة، أو أن نصلّي بلا ملل (لوقا ٢: ٣٧، ١٨: ١ – ٨؛ رومية ١٢: ١٢)، هو أن نعرف أنّ الله حاضر معنا دائمًا، وأنّه يحبّنا، ويريدنا أن نلتفت إليه، ونكلّمه بودّ وثقة. والصلاة الدائمة تفترض، أوّلاً، أن نشارك، باستمرار، في الخدمة الإلهيّة (القدّاس الإلهيّ) في كلّ أحد وعيد، وفي كلّ صلاة جماعيّة. وتفترض، تاليًا، أن نحافظ على صلواتنا اليوميّة. ومنها الصلوات الثلاث التي شاع أن يلتزمها بعض المؤمنين، وهي: صلاة

السَحريّة (التي تقام صباحًا)، صلاة الغروب (التي تقام مساءً بعد العودة من العمل أو المدرسة والجامعة)، وصلاة النوم (قَبْلَ النوم). وهذه الصلوات اليوميّة قاعدة كلّ صلاة. وهي ملزمة، حتّى لا نخسر فرحنا، وحتّى لا نستسهل الكلام مع الله، ونختصره بعبارات قليلة نتمتمها صباح مساء، أو نكتفي برسم إشارة الصليب بعد أن نستيقظ، أو نخرج من منازلنا.

إذًا، لا يمكننا أن نكمّل ما يطلبه الرسول من دون قاعدة يوميّة. فالقاعدة اليوميّة هي التي تجعلنا نعي أنّ إلهنا الذي نقصد مخاطبته، دائمًا، هو إله الجماعة المطيعة التي يوحّدها حبّه في كلّ لقاء يجمعها، والتي يبقى أعضاؤها على وعيهم وحبّهم ودعائهم، ولو افترقوا بعد لقاء شكور. ولا يمكننا، تاليًا، أن نتكلّم على صلاة نتقرّب فيها من الله من دون أن نبيّن اقتناعًا حقيقيًّا بحياة فاضلة. فـ«الصلاة ابنة للوداعة وعدم الغضب» (افاغريوس البنطيّ). و«مَنْ يصلِّ وهو حاقد، يشبه الزارع في البحر على أمل الحصاد» (إسحق السوريّ). وهذا إنّما يعني أنّ مَنْ يصرف حياته وأشواقه في محبّة الأرض لا يقدر على أن يطلب «الأمور التي في العلى حيث المسيح قد جلس عن يمين الله» (كولوسّي ٣: ١)، أي الحياة الجديدة. فالصلاة الحقيقيّة الطاهرة هي التي تناديها حياة طاهرة، والتي تكمّلها حياة طاهرة جديرة بالله الذي يدعونا إلى «ملكوته ومجده» (١تسالونيكي ٢: ١٢). ومن مقتضيات الصلاة البارّة أن نتوب إلى الله بعمق. «لا تنهِ صلاتك قَبْلَ أن ترى لهيب التوبة وماء الدموع قد انقطعا عنك من عند الله، فلعلّك لا تصادف، في كلّ حياتك، وقتًا موافقًا كهذا لمغفرة خطاياك» (يوحنّا السلّميّ). ومن

مقتضياتها ألاّ نفعل أمرًا يغضب الربّ. «فإن الربّ لم يدعنا إلى النجاسة، بل إلى القداسة» (١تسالونيكي ٤: ٧)، وإلى أن نحبّ الإخوة (١تسالونيكي ٤: ١٩)، ونشدّد بعضنا بعضًا، ويبني أحدنا الآخر (١تسالونيكي ٥: ١١)، ونساعد الضعفاء، و«نصبر على جميع الناس» (١تسالونيكي ٥: ١٤).

والصلاة الدائمة يتعلَّمها المؤمن بالممارسة. «صلِّ، والصلاة ذاتها تعلِّمك أن تصلّي» (افاغريوس البنطيّ). أن نصلّي يومًا، وننقطع عن الصلاة أيّامًا، وأحيانًا أشهرًا، لا يعني أنّنا نصلّي. فالصلاة منطلقها المحبّة، وهدفها المحبّة. فَمَنْ يعِ أنّ الله يحبّه، ويبادله المحبّة، لا يلقْ به أن يهمل مخاطبته. لأنّه، إن أهمل الصلاة أو استخفّ بها، وقع، لا محالة، «أسير عصيان تلو عصيان» (مرقس الناسك). نجاته رهن بصلاته الحارّة التي يرفعها، دائمًا، بجهد لا يخفّفه، أو يقطعه، أيّ شيء. ولا تكون الصلاة حقيقيّةً، أو كاملةً، إلاّ إذا استمرّت بعد انتهاء الصلاة. وهذا يعني أنّ الصلاة الدائمة هي التي يكملها الروح القدس بعد الصمت. «وكذلك فإنّ الروح، أيضًا، يأتي لنجدة ضعفنا، لأنّنا لا نحسن الصلاة كما يجب، لكنّ الروح نفسه يشفع لنا بأنّات لا توصف» (رومية ٨: ٢٦). فالصلاة، حتّى تليق بمسمع الله الآب، يحملها الروح، ويردّدها بما يفوق قدرة بشر. لأجل ذلك، نفتتح كلّ صلاة باستدعاء الروح القدس. وإنّما نستدعيه، ليساعدنا، ويرشدنا، ويحمل صلاتنا، ويصلّي معنا وفينا.

هذا ما اعتنى آباؤنا بأن يعملوه، ويعلّموه. ووجدوا خير سبيل لتحقيقه أن تبقى قلوبنا مشغولةً بذكر اسم الربّ يسوع. ولهم، في هذا

الذكر، طرائق وأصول غايتُها طرًّا شخصُ ابن الله وطلب رحمته والاتّحاد به. والرحمة أن يلدنا الآب بابنه، ويجدّدنا دائمًا. أن تنادي الربّ في قلبك باسمه، هو أن تتحرّك بالروح. «ولا يستطيع أحد أن يقول يسوع ربّ إلاّ بإلهام الروح القدس» (١كورنثوس ١٢: ٣). وأن تعتني على عدد دقّات قلبك أن توافق هذا الذكر، حتّى تقدر على أن تردّد مع الرسول: «فما أنا أحيا بعد ذلك، بل المسيح يحيا فيَّ» (غلاطية ٢: ٢٠).

الصلاة الدائمة هي حياة المؤمنين الذين حلا لهم أن يرتشفوا من جمال الملكوت الآتي «الآن وهنا».

في التصدّق

قال الملاك رافائيل لطوبيّا ووالده طوبيت: «الصلاة مع الصوم والصدقة مع البرّ خير من الغنى مع الإثم. التصدّق خير من ادّخار الذهب. الصدقة تنجّي من الموت، وهي تُطهِّر من كلّ خطيئة. الذين يتصدّقون يشبعون من الحياة. أمّا الذين يرتكبون الخطيئة والإثم، فهم أعداء أنفسهم» (طوبيّا ١٢: ٨- ١٠).

مَنْ يقرأ سفر طوبيّا (وهو من الأسفار القانونيّة الثانية)، يعرف أنّ الملاك رافائيل، ومعنى اسمه «الله يشفي»، اتّخذ صورةً بشريّةً، وتطوّع، ليكون دليل رحلة مليئة بالمخاطر من نينوى إلى أحمْتَا (همذان)، أي إلى ما يقال له اليوم العراق وإيران (والمهمّة مختصرها أن يرافق طوبيّا، ويساعده على استرداد عشرة قناطير من الفضّة كان طوبيت والده قد أودعها عند أحد أقربائه، وهو جبعئيل بن جبري المقيم براجيس ميديا). ويعرف، تاليًا، أنّ طوبيّا ووالده طوبيت كانا قد اتّفقا مع رافائيل على أجرٍ محدّد. فبعد إتمام المهمّة بنجاح منقطع النظير (راجع: الإصحاحات ٥- ١٢)، رأى الوالد وابنه أنّ «دليلهما» يستحقّ أكثر بكثير من المبلغ الذي اتّفقا معه عليه. وعندما أبلغاه قرارهما (قال له طوبيّا: «خذْ نصف ما عدتَ به أجرةً لك»)، دعاهما الملاك إلى أن: «يباركا الله ويسبّحاه أمام جميع الأحياء لكلّ ما أحسن به إليهما»، وإلى ألاّ يتوانيا في تسبيحه وصنع الخير (١٢: ٦). ثمّ قال لهما القول الأوّل، وكشف لهما نفسه (١٢: ١١- ٢٠).

ما يلاحظه القارئ أنّ مقتضى البرّ، الذي حدّده الملاك هنا (أي الصلاة والصوم والصدقة)، هو المقتضى ذاته في عظة الجبل (متّى ٦: ١- ١٨). وليس من اختلاف بين الموضعين إلاّ في ترتيب الفضائل. فبينما يجعل الربّ في عظة الجبل الصدقة أوّلاً، يضعها سفر طوبيّا في المرتبة الثالثة.

إذًا، يأتي هذا القول بعد حثّ الملاك رافائيل طوبيّا ووالدَهُ على فعل الخير الذي يفترض صلاةً وصومًا وتصدّقًا. فهذه، معًا، تعلِّم الإنسان المؤمن أن يستقي حياته من الله، أي أن يحيا له، وأن يراهن عليه في كلّ شيء. فالصلاة (طوبيّا ٣: ١- ٦ و١١- ١٥، ٨: ٥- ٨ و١٥- ١٧، ١١: ١٤ و١٥) خيرُ تعبيرٍ عن أنّ الإنسان يؤمن بالله وبعطاياه. والصوم هو نوع من الافتقار الراجي الذي يعلّم الإنسان، ببلاغة كلّيّة، أنّ الدنيا زائلة، وأنّ الباقي هو وجه الربّ الذي نلتمس رضاه في صومنا وصلاتنا. أمّا التصدّق (طوبيّا ١: ١٦، ٤: ٧ و٨، و١٦، ١٤: ٨ و٩)، فهو، واقعيًّا، نتيجة لهذا الوعي. فَمَنْ لا يؤمن بالله، لا يقدر على أن ينفِّذ رضاه. التصدّق طلب إلهيّ. وعلى طلب الله يبني المؤمن كلّ عطاء، لئلاّ يغرّره فعله، ويستكبر.

مِنْ منافع هذا القول أنّه يجمع بين هذه الفضائل الثلاث والبرّ، وأنّه، تاليًا، يجمع بين الغنى والإثم. ليس بمعنى أنّ الغنى إثمّ بحدّ ذاته، لكن قد يقود إلى الإثم، ولا سيّما إذا اعتقد الإنسان أنّ «حياته من ماله» (لوقا ١٢: ١٥). أمّا مَنْ سلك بموجب الحكمة التالية: «التصدّق خير من ادّخار الذهب»، فيبتعد عن كلّ إثم. التصدّق، أو توزيع المال على المحتاجين، هو الدلالة الكبرى على أنّنا نؤمن بأنّ الله هو سيّد حياتنا. وهذا ما أكّده الملاك،

بقوله: «الصدقة تنجّي من الموت، وهي تُطهِّر من كلّ خطيئة». هي تنجّي من الموت، لأنّها التعبير عن الإيمان بالله الحيّ والمحيي. وهي تطهِّر من كلّ خطيئة (طوبيّا ٤: ٩- ١١، ١٤: ٨ و١١؛ أمثال ١١: ٤ و١٦: ٦؛ دانيال ٤: ٢٤؛ وأيضًا: تعليم الرسل الاثني عشر ٤: ٦)، لأنّ الطهارة تكتسب بطاعة الله التي الصدقة معنى من معانيها. فقد نتجاوز البرّ. والتصدّق يمكن أن يكون دليلاً على رغبتنا في العودة إلى الله، أو تأكيدًا لها.

يتابع رافائيل وصيّته بقوله: «الذين يتصدّقون يشبعون من الحياة». وهذا، في الواقع، صدًى للفكر العبريّ القديم الذي كان يفترض أن يبيّن الله، في هذه الحياة، رضًا ملموسًا عن فعل الخير، أي أن يكافئ مادّيًّا (أمثال ٣: ٩ و١٠، ٨: ١٧- ٢١). غير أنّ هذا لا يمنع الفهم أنّ مَنْ يتصدّق، مؤمنًا بأنّ حياته من الله، لا يخاف شيئًا في الأرض. فبالتصدّق، يتعلَّم المؤمن أن يتّكل على الله في كلّ أمر. هذا هو الشبع من الحياة بمفهوم العهد الجديد الذي أكّده يسوع، بقوله: «فلا تهتمّوا فتقولوا: ماذا نأكل؟ أو ماذا نشرب؟ أو ماذا نلبس؟ فهذا كلّه يسعى إليه الوثنيّون، وأبوكم السماويّ يعلم أنّكم تحتاجون إلى هذا كلّه. فاطلبوا أوّلاً ملكوته وبرّه تزادوا هذا كلّه» (متّى ٦: ٣١- ٣٣). فالمؤمن، إذا وعى أنّه يعيش في ظلّ رعاية الله أبيه، يشبع من الحياة. لا يعني هذا أنّ المؤمن ينجّيه وعيه من المصاعب والمشقّات، فقد يفتقر، ويجوع. لكنّه، مؤمنًا، يتعلَّم أن يكتفي بما يرزقه ربّه في هذه الأرض، ويشكر، ويبقى، في كلّ حال، ممتشقًا إلى ملكوتٍ هو البرّ كلّه والشبع كلّه. مَنْ يتتلمذ على الله إذًا، لا يحبس نفسه بمفاهيم بالية، بل يعمّق فهمه الدنيا

على ضوء حضور الله المعطي بسخاء (٢كورنثوس ٩: ٩).

الجزء الأخير من قول الملاك، أي: «أمّا الذين يرتكبون الخطيئة والإثم، فهم أعداء أنفسهم»، يوضح، بما لا يقبل جدلاً، أنّ الامتناع عن التصدّق خطيئة وإثم، وأنّ مَنْ يحجب، قادرًا، عن الفقراء ما يحتاجون إليه، يشوِّه نفسه، أي يخالف الله بتجاوزه طاعته. وهذا، في الواقع، هو أساس عقاب الله. فالله لا يحكم على إنسان، إلاّ إذا عادى الإنسان نفسه، أو «حكم عليها» (طيطس ٣: ١١)، بظلمه وتجاوزه.

قول الملاك رافائيل يشفينا من كلّ وَهْم باطل. فإذا أحسنّا الإصغاء، نتعلَّم كيف نسود الدنيا، ولا يسودنا شيء. ونتعلَّم، أيضًا، كيف نرى حياتنا في طاعة الله وحده.

السيرة الكريمة

مِنَ الوصايا المربّية، التي حضّ الرسول المؤمنين عليها، قوله: «لنسر سيرةً كريمةً في وضح النهار. لا قَصْف ولا سُكْر ولا فاحشة ولا فجور ولا خصام ولا حسد» (رومية ١٣: ١٣؛ راجع: مجموعات أخرى للرذائل حذّر منها العهد الجديد، ومنها: مرقس ٧: ٢١ و٢٢؛ غلاطية ٥: ١٩- ٢١؛ كولوسّي ٣: ٥- ٩). وهذه الوصيّة، التي يعنينا معناها هنا، تختصر مقطعًا عن التيقّظ، جاء بعد تذكيرٍ بالمحبّة التي هي «كمال الشريعة».

مَنْ أحبّ الله حبًّا جمًّا، وحيا ببرّ خلاصه (أي «قام مع المسيح»)، دعوته أن يبتعد، دائمًا، عن كلّ خطيئة نتنة تظلمه وتميته، وأن يسير، بنباهة، «في وضح النهار»، أي أن يكون «نورًا في العالم» (متّى ٥: ١٤؛ أعمال الرسل ١٣: ٤٧؛ فيلبّي ٢: ١٥؛ أفسس ٥: ٨؛ ١تسالونيكي ٥: ٥). هذا ما أكّده الرسول، بقوله: «لنلبس سلاح النور» (الآية الـ١٢)، الذي هو الربّ يسوع المسيح (الآية الـ١٤؛ قابل مع: يوحنّا ١: ٨ و٩، ٣: ١٩، ٨: ١٢، ٩: ٥، ١٢: ٣٥ و٤٨). وَمَنْ لبس الربّ سلاحًا، أي حاز كلّ ما يمكّنه من البرّ والانتصار على الشرّير وشروره، لا يليق به أن يسقط في جهاده ضدّ الخطيئة، ولا عذر لسقوطه.

إذًا، همّ الرسول، في ما أوصاه، هو سلوك المؤمنين اللائق بالله، أو بانتسابهم إلى «ملكوته ومجده» (١تسالونيكي ٢: ١٢). فشأن المؤمن، الذي انتسب إلى مَنْ «لم يرتكب خطيئةً ولم يوجد في فمه غشّ» (١بطرس

٢: ٢٢؛ وانظر أيضًا: ٢كورنثوس ٥: ٢١؛ ١يوحنّا ٣: ٥)، أن يتشبّه به في حياته. وهذا التشبّه هو الذي يفضح الشرّير وألاعيبه، ويعطينا نعمة أن ننتصر عليه.

الخطايا الستّ، التي عدّدها الرسول في هذه الوصيّة، هي رمز للشرّير المغلوب. فالمؤمن ينطلق، في جهاده، من أنّ الربّ، لمّا علِّق على الخشبة، قضى على الشرّير. خطايا ستّ، أي ناقصة. ومهما بدت كاملةً أو مقتدرةً، يعرف المؤمن أنّه، بلبسه «سلاح النور»، أقوى منها، لأنّ الربّ أقوى من كلّ شرّ وشرّير.

أوّل خطايا القائمة هو «القَصْف». واللفظة تعني الإقامة في الأكل والشرب واللهو. وهذه كلّها نوع من أنواع الغرق في العالم. ولا يعني الرسول، بهذه الخطيئة، أنّ المؤمن لا يأكل ولا يشرب، أو لا يتسلّى للمنفعة بتاتًا، فهذه أمور شرعيّة يحتاج إليها كلّ إنسان يحيا في العالم، لكن أنّه لا يقيم فيها، أو لا يجعلها هاجسه. فالشرّير يدخله ممّا يبدو له شرعيًّا. فإذا استسلم المؤمن للعالم وملذّاته، صار طريدةً سهلةً للشيطان، وسقط في حبائله. قيامه رهن بوعيه. والوعي الكامل ألاّ يهمل المؤمن، لحظةً، أنّه يحيا لله وحده. بعد القَصْف، السكر. وهذه الآفة، التي تتبع زميلتها الأولى، تؤكّد، بشكل أبلغ، الاستسلام للعالم. ولا يعني الرسول، أيضًا، أنّ المؤمن لا يشرب الخمر البتّة (١تيموثاوس ٥: ٢٣)، بل لا يسكر، أو لا يشرب الخمرة التي «تدعو إلى الفجور» (أفسس ٥: ١٨). فالسكر فيه ضياعٌ وسخريّة (أمثال ٤: ١٧، ٢٠: ١، ٢٣: ٢٠ و٢٩- ٣٥، ٣١: ٤ و٥). وَمَنْ

أضاع وعيه، لا يمكنه أن يركّز على مقتضيات خلاصه. الخطيئة الثالثة هي الفاحشة. والفاحشة هي كلّ أنواع الفساد الإباحيّ. فَمَنْ يُقِمْ في هذه الحياة، أكلاً وشربًا ولهوًا وسكرًا، لا يقدر على أن يمنع نفسه من أيّ أمر قبيح قولاً وفعلاً. فالأكل واللهو والضياع يسوقه إلى الفحش. وهذه الخطيئة يتبعها الفجور، أو العهر. والفاجر هو مَنْ مال عن الحقّ، أي مَنْ سقط في كذب، أو زنًى، أو كفر. وَمَنْ كان فاجرًا، قاد نفسه إلى الخطيئة الخامسة، أي إلى الخصام. والمخاصم هو مَنْ رفّع نفسه، وقضى حياته في المجادلات والنزاعات (أمثال ١٣: ١٠، ١٧: ١٩). وهذا طبيعيّ، لأنّ مَن انقاد إلى هذه الخطايا كلّها لا تبقى عنده قيمة لسلام الله، ولا يقدر على أن يسالم أحدًا. يفقد سلامه، ويكثر شغبه. وَمَنْ حمل في قلبه هذه الشرور جميعها، يسوق نفسه إلى الخطيئة السادسة، وهي الحسد. والحسود هو مَنْ ينكر على الآخرين نعمهم، أي مَنْ يتمنّى زوالها وتحوّلها إليه. وهذه قمّة خطايا هذه القائمة التي تبيّن أنّ الشرّير همّه الأخير أن يفصل الناس عن الله، وأن يفصلهم، تاليًا، بعضهم عن بعض. وكلّ هذه الخطايا، التي طلب الرسول من المؤمنين أن يبتعدوا عنها لتكون سيرتهم كريمةً، تناقض الخلاص، أو النور، لأنّها تعيد الساقطين فيها، أو في إحداها، إلى الليل، أي إلى الظلمة التي أخرج المسيح أحبّاءه منها، وأوصاهم بألاّ يدخلوها ثانيةً.

هذه الشرور إنكار لخلاص المسيح. فَمَن ارتضى خلاصه، جنّد نفسه له في العالم الذي يحيا فيه. ولا يبرّر المؤمن أنّ هذا العالم تتأكّله الخيانة بمجمله. فالرسول يدعونا إلى أن تكون «سيرتنا كريمةً» في هذا العالم

البهيم. وهذا يفترض حقّه أن نعرف أنّ الخطايا، وإن بدت حلوةً، فإنّ مذاقها مرّ ومميت (أنظر: تعليم الرسل الاثني عشر ٥: ١- ٣). وما ينجّينا منها إنّما هو إيماننا بأنّ المسيح سلّحنا بنوره، لنقتدر، ونغلب، ونحيا. النور هو المعرفة كلّها. ولا يعذر المؤمن أن يختبر الخطيئة، ليعرف شرّها، ويتوب فعلاً! فلا أحد يلامس النار، ليعرف أنّها تحرق. وَمَنْ سلك في النور، أو لبسه بنباهة كلّيّة، وبقي على إخلاصه يومًا بعد يوم، يختطفه الربّ، في مجيئه الأخير، ويعرف نفسه فيه. هذا هو رجاء الذين يلبسون النور، ويسيرون فيه، ومكافأتهم.

الزواج المسيحيّ

لقد اختارت الكنيسة الأرثوذكسيّة، بحبّ بالغ، أن تأخذ تعليم الرسول بولس عن علاقة المسيح وكنيسته الوارد في رسالته إلى أهل أفسس (٥: ٢٠- ٣٣)، وأن تعكسه على المسيحيّين المتزوّجين. فالمقطع هو إحدى التلاوتين الخاصّتين بخدمة الإكليل (التلاوة الثانية اختارتها من إنجيل يوحنّا ٢: ١- ١١).

مَنْ عرف الأدب الكتابيّ، لا يفوته أنّ الرسول قد استوحى فكره هذا، أوّلاً، من علاقة الله بشعبه كما وصفها الأنبياء في العهد القديم، أي علاقة الزوج بزوجه (أنظر مثلاً: إشعيا ٥٤: ٤- ٨، ٦١: ١٠ و١١، ٦٢: ٤ و٥؛ إرميا ٢: ٢، ٣١: ٣؛ حزقيال ١٦؛ هوشع ١- ٣؛ وانظر أيضًا: سفر نشيد الأناشيد). وأنّه استند، تاليًا، إلى رواية الخلق الواردة في سفر التكوين (٢: ٢١- ٢٤)، التي تجعل من المرأة زوجة الرجل ونظيره. فهذه وتلك أعطتا الرسول أن يتكلّم على سيادة المسيح العريس (متّى ٩: ١٥، ٢٥: ١- ١٣؛ يوحنّا ٣: ٢٩؛ ٢كورنثوس ١١: ٢) الذي افتدى شعبه، ووحّده بدمه. فالربّ أحبّ الكنيسة، وغسلها «بالماء والكلمة»، أي بالمعموديّة التي هي مشاركة في موته وقيامته، وبكلمته الحيّة التي هي مقتضى حياة المؤمنين جميعًا، وشهادتهم في العالم.

يطلب الرسول، في فاتحة هذه التلاوة، من المؤمنين أن «يشكروا الله الآب كلّ حين على كلّ شيء باسم ربّنا يسوع المسيح» (الآية الـ٢٠). فالحياة

قوامها الدائم شكر الله الآب باسم يسوع الذي هو وجه الآب (٢كورنثوس ٤: ٦؛ عبرانيّين ١: ٣)، وطريقنا إليه (يوحنّا ١٤: ٦). ويحثّهم، تاليًا، على الخضوع بعضهم لبعض بتقوى المسيح (الآية الـ٢١). ويخصّص النساء بالخضوع لرجالهنّ «كما للربّ» (الآية الـ٢٢). وهذا مدخل قوله: «لأنّ الرجل هو رأس المرأة كما أنّ المسيح رأس الكنيسة التي هي جسده وهو مخلّصها» (الآية الـ٢٣)، الذي يستكمله بقوله: «وكما تخضع الكنيسة للمسيح، فلتخضع النساء لأزواجهنّ في كلّ شيء» (الآية الـ٢٤). ومعنى هذه الآيات جملةً أنّ الخضوع، الذي قاعدته «تقوى المسيح»، هو عمل مشترك بين الرجل والمرأة، ولو أنّ الرسول خصّ النساء بخضوعهنّ لرجالهنّ. فهذا قاله بعد أن جعل الرجل صورةً للمسيح والمرأة صورةً للكنيسة. الخضوع لا يفهم بعيدًا من هذا النسق. المسيح رأس الكنيسة، لأنّه، وهو ربّها، مات عنها. ودعوة الرجل أن يحذو حذوه. فالخضوع هو للمحبّة الكاملة، وليس لتعنّتٍ، أو للحم ودمٍ بشريّين. ولذلك قال أبونا المفوّه يوحنّا الذهبيّ الفم ما معناه: «مَنْ يمتْ (رجلاً كان أو امرأةً) عن الآخر، يكنْ رأسه»، ليوحي بأنّ المرأة، إذا تقدّست ببرّ الله وكانت حياتها حجًّا إلى ملكوته، خضوع الرجل لها حقّ وواجب.

بعد هذا، يدعو الرسولُ الرجال إلى محبّة نسائهم «كما أحبّ المسيح الكنيسة، وجاد بنفسه من أجلها، ليقدّسها...» (٢٥ و٢٦). والمحبّة هي، أيضًا، موت في سبيل الآخر. هذا ظاهر هنا، وظاهر، بجلاء كلّيّ، في قول الربّ: «فإنّ الله أحبّ العالم، حتّى إنّه جاد بابنه الوحيد، لكيلا يهلك

كلّ مَنْ يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبديّة» (يوحنّا ٣: ١٦). ليست المحبّة أن ننتظر أن يحبّنا الآخرون، لنحبّهم، هذا منطق أهل الأرض، بل أن نتمثّل بالله، ونبادر فنحبّ. والمحبّة، التي لا تنتظر مبادلةً، لا تنتظر استحقاقًا أيضًا. فَمَنْ يحبّ غيره، يحبّه دائمًا، ويصنعه بحبّه. فالمسيح غسلنا بحبّه، لنكون «مقدّسين وبلا عيب» (الآية الـ٢٧)، أي خلقنا جديدًا، لنستحقّ أن نكون أبناء الله، ونقدر على الإخلاص له. هذا هو هدف المحبّة التي ينتظرها الله من الرجل كما من المرأة. وهذا يثبته قول الرسول: «وكذلك على الرجال أن يحبّوا نساءهم حبّهم لأجسادهم. مَنْ أحبّ امرأته، أحبّ نفسه. فما أبغض أحد جسده قطّ، بل يغذّيه ويعنى به شأن المسيح بالكنيسة. فنحن أعضاء جسده» (الآيات ٢٨- ٣٠). دائمًا، علاقة المسيح بالكنيسة هي المثال. وما نلاحظه أنّ مضمون هذه الآيات يوافق الوصيّة العظمى موافقةً كاملة. فالربّ دعانا إلى أن نحبّ الآخرين كما نحبّ أنفسنا (متّى ٢٢: ٣٩؛ رومية ١٣: ٩؛ غلاطية ٥: ٤؛ يعقوب ٢: ٨). وهذا من معانيه أنّ الرسول ينتظر أن نبدأ بتنفيذ الوصيّة انطلاقًا من بيوتنا. إذ لا يعني لله شيئًا أن نحبّ الناس جميعًا، ونريد لهم كلّ خير ومنفعة (إن كنّا على هذه الأخلاق)، ولا نفعل الشيء ذاته مع أهل بيتنا أوّلاً.

ثمّ يتابع بولس كلامه بقوله: «ولذلك يترك الرجل أباه وأمّه ويلزم امرأته، فيصير الاثنان جسدًا واحدًا» (الآية الـ٣١؛ قابل مع: تكوين ٢: ٢٤). هذا ليس معناه أنّ الإنسان، إذا تزوّج، ينقطع عن أبويه، بل يتّحد بشريكه الجديد. وهذه الوحدة تقوم على المسيح. فالزوج لا يصير واحدًا

مع زوجه إلاّ إذا اندمجا معًا في مسيح الله. العلاقة الزوجيّة لا توحِّد بحدّ ذاتها. فالوحدة، هنا، دعوة إلى تمتين العلاقة برأس الجسد، أي بمسيح الله. هذا ما يبيّنه الرسول بقوله التابع: «إنّ هذا السرّ لعظيم، وإنّي أقول هذا في أمر المسيح والكنيسة» (الآية الـ٣٢). ويكرّر، أخيرًا، ما قاله قَبْلاً: «فكذلك أنتم أيضًا، فليحبّ كلّ منكم امرأته حبّه لنفسه، ولتوقّر (أو «ولتخف»، وهي عودة إلى التقوى الواردة في الآية الـ٢١) المرأة زوجها» (الآية الـ٣٣). فالسرّ هو سرّ المسيح والكنيسة. كلّ أسرارنا تقول هذه العلاقة، أو تعكسها. والزواج لا يفهم بعيدًا من وحدة المسيح وكنيسته. الحبّ والتقوى وكلّ فضيلة مطلوبة من الزوجين، لأنّها مطلوبة مِمَّنْ يؤمنون بأنّ الربّ فداهم، ووحّدهم به.

هذا التعليم الحيّ سرّ الكنيسة الساعية في هذا العالم، وحياة أعضائها جميعًا، حتّى يبقى الزواج عرسًا يوميًّا.

أن نحيا بكلمة اللّه الآن

مِنْ ضمن وصايا عدّة في الحياة المسيحيّة، قال الرسول، في رسالته إلى أهل كولوسّي: «لتنزل فيكم كلمة الله وافرةً، لتعلّموا بعضكم بعضًا وتتبادلوا النصيحة بكلّ حكمة» (٣: ١٦). وهذه الوصيّة أوردها بعد أن حثّ المؤمنين، الذين «قاموا مع المسيح»، على أن يرغبوا في «الأمور التي في العلى، لا في الأمور التي في الأرض»، وبعد أن حضّهم على اقتناء كلّ فضيلة، ولا سيّما لبس «ثوب المحبّة التي هي رباط الكمال» (٣: ١– ١٥).

تختصر هذه الوصيّة مسؤوليّة المسيحيّين الذين كُلِّفوا أن يحيوا معًا، في كلّ عصر، بموجب كلمة الله. فالربّ، الذي شاء أن نحبّه حبًّا كلّيًّا ونشهد لمجده، وضع لنا الأساس الذي يجب أن نسلك وفقَهُ بعضُنا مع بعض، لنثبت جميعنا في الحقّ. المسيحيّون إخوة. واعتناؤهم بعضهم ببعض واجب مقدّس. وليس من عناية صحيحة إلاّ من الذين «نزلت فيهم كلمة الله وافرة». فبموجب الكلمة، يحيا المؤمنون الآن. وعليها يبنون كلّ كلام وتصرّف هدفه مساندة الإخوة، ليرتبطوا بالله الحيّ، ويذوقوا بركاته في حياتهم، ويرجوها أبدًا.

أوّل سند للمؤمن، في هذه الوصيّة، هو تعليمه. وهذه مسؤوليّة الكنيسة المفتداة، وتكليف مَنْ أعطي هذه الموهبة في الجماعة. ففي الحياة الكنسيّة، لا يكفي أن يتجمّع الناس بعضهم مع بعض، ليتقرّر ثباتهم. ثباتهم، مجتمعين، رهن بوعيهم. والوعي قاعدته معرفة «فكر المسيح»

(١كورنثوس ٢: ١٦) الذي لا يمكن أن يثبت أحد إن أهملَهُ وَنَقْلَهُ. التعليم حصن للمؤمن في هذا الوجود، لأنّه قادر على أن يبيّن مشيئة الله الحقيقيّة، أي أن يكسر الأصنام التي يصطنعها الإنسان لنفسه، ويستريح إليها. والأصنامُ وَهْمٌ. والله هو الحقّ. والتعليم، أيضًا، حصن للمؤمن في زمن كثرت فيه البدع والشيع المتطرّفة التي تشوِّه الحقيقة، وتستغبي الكثيرين. فإذا التزم المؤمن، تبقى دعوتُهُ أن «يذكّي هبة الله التي فيه» (٢تيموثاوس ١: ٦)، ويحفظ «أصول التعليم»، ويطيعه «بصميم قلبه» (رومية ٦: ١٧)، ليثبت، ويحمي نفسه، وينمو بالحقّ. فمن مقتضيات الالتزام الصحيح، إذًا، هو التعليم. ولا يتلقّى المؤمن تعليمه بعيدًا من كنيسته التي تسلّمت الإيمان تامًّا (يهوذا ٣). مَنْ يلتجئ إلى الغرباء ليتعلَّم مثلاً، يفقد نفسه، ويخرج على كنيسته. فالرسول، الذي يعرف أنّ الإنسان قد يهمل كنيسته ويستحلي «المنتفخين من الكبرياء» (١كورنثوس ٤: ١٩)، أوصى: «لتعلِّموا بعضكم بعضًا». وهذا يوجب أن يقبل المؤمن تعليم الجماعة، وأن يبذل جهدًا شخصيًّا، ليعمق فهمه. فالمؤمن لا يتعلَّم على نفسه حصرًا، بل يأخذ من معين كنيسته، ويبني عليه. مَنْ يتعلَّم وحدَهُ، من دون أن يتّكئ على صدر كنيسته ويسمع منها أسرار الأبد ويصادق القدّيسين، معرّض لأن يستسلم لأفكاره وآرائه الشخصيّة التي تزيد من وحدته وغربته. وهذا، أيضًا، يوجب أن تكون للمؤمن، الذي ينهل من معين كنيسته، رغبة في التعليم، وأن يصرف وقتًا في تحصيله. فَمَنْ لا «يتقشّف» (٢تيموثاوس ٤: ٥)، ليزداد فهمه وينمو بالحقّ، معرّض ليبقى التزامه هامشيًّا، ولكلّ وَهْمٍ

وتأرجح.

أمّا السند الثاني، فهو انفتاح المؤمن على إخوته وقبوله نصحهم وإرشادهم. هذا ما أكّده الرسول، بقوله: «وتتبادلوا النصيحة بكل حكمة». وهذا إنّما يعني أنّ هناك نصيحةً حكيمةً، أي من وحي المسيح الذي هو «حكمة الله» (١كورنثوس ١: ٢٤ و٣٠، ٢: ٦؛ أفسس ١: ١٨، ٣: ١٠؛ كولوسّي ١: ٢٨، ٢: ٣، ٣: ١٦)، وهناك نصيحةً غريبةً عن حكمته. المؤمن، إذا صعب عليه أمر أو شرد، شأنه أن يلتجئ إلى الحكماء في كنيسته، أي إلى المؤمنين الذين عمّروا قلوبهم بمحبّة المسيح، ونزلت فيهم «كلمة الله وافرة». «فتّش دائمًا عن الأشخاص القدّيسين، فتريحك كلماتهم» (تعليم الرسل الاثني عشر ٤: ٢). والنصيحة واجبة، في حال السلامة، وفي غير حال. ولا يمتنع المؤمن عن قبولها، ولو أتته من دون أن يطلبها. فَمَنْ ينخرط في حياة كنيسته، ويفتح قلبه وكيانه كلّه على كلمة الله وتعليم كنيسته، ينتظر، دائمًا، أن يساهم إخوته في نصحه، أي في استقامته ونموّه، أو هذا ما يجب. وهذا، أيضًا، يعني أنّ المؤمنين لا يمتنعون عن نصح بعضهم بعضًا، إذا طلب منهم النصح، أو رأوا أنّ ثمّة ما يفترضه. والنصح الكامل هو الذي يساعد المؤمن على اعتبار كلمة الربّ تخصّه الآن. وهذا لا يمنع التشارك في أمور هذه الحياة. فما دام الإنسان يحيا، في هذه الأرض، يحتاج إلى مَنْ يعينه في غير أمر. فالمسيحيّة، التي تطلب «أمور العلى»، تُعاش من هذه الأرض. وكلّ ما في الأرض مدعوّ إلى أن يلبس حلّة المسيح. النصيحة المتبادلة واجب، أو ضرورة من ضرورات المحبّة التي قال فيها الرسول إنّها «رباط الكمال».

ما يكمل الآية التي علَّقنا عليها، أي: «رتّلوا لله من صميم قلوبكم شاكرين بمزامير وتسابيح وأناشيد روحيّة»، يكشف لنا سندًا ثالثًا للمؤمن. فالصلاة هي، أيضًا، دعم للجهاد الراجي. وهي تأتي، في هذا السياق، بعد التعليم والنصح، تكليلاً للالتزام الذي لا يكمل من دون تقديم الشكر لله الآب دائمًا «باسم الربّ يسوع» (الآية الـ١٧).

مَنْ يرغب في «أمور العلى»، يندرج في حياة كنيسته بوعي، أي يقبل بشارتها وتعليمها ونصحها وصلاتها، ليثبت في الحقّ، ويساهم في نموّ الكنيسة وحسن شهادتها في العالم.

اختيار القادة

القيادة، في الكنيسة، تكليف. فَمَنْ كان إيمانه سليمًا، وحيا في الجماعة حياةً فاضلةً وأمينةً، لا يؤهّله برّه لأن يستحلي مسؤوليّةً في الكنيسة، أو يسلك سبلاً ملتويةً، ليحقّق مراده. وذلك بأنّ كلّ خدمة صالحة يبيّنها الله المنعم بمواهبه على الكلّ «لأجل الخير العامّ» (١كورنثوس ١٢: ٧). بمعنى أنّ الله هو الذي يشير إلى ما أودعه في شعبه للبنيان. ولله، في الإشارة، طرائق وأصول. ففي تراثنا، الله أعطى الأساقفة، أوّلاً، أن يلاحظوا المؤهَّلين، وينتدبوهم للخدمة. وجعلهم، تاليًا، يؤكّدون قرارهم الحسن باستشارة المؤمنين الصالحين الذين كُلِّفوا، أيضًا، أن يوصوا بِمَنْ حلا لله برّه، وكان نورًا في الجماعة. فالتكليف استضاءة بنور الله الذي قَبِلَهُ بعضٌ قبولاً وافرًا، حتّى يساهموا في خدمةِ كنيسةٍ ليس مثلها شيء.

هذا بيّنه الرسول بقوله: «فليس صاحب الفضيلة المجرّبة مَنْ وصّى بنفسه، بل مَنْ وصّى به الربّ» (٢كورنثوس ١٠: ١٨). فالتوصية بالنفس، أي قياس النفس بالنفس، فقدان للرشد (١٠: ١٢). وهذا قاله بولس في سياق دفاعه عن رسوليّته التي هي تكليف الربّ. وقد علّمنا أنّه لا «يفتخر افتخارًا يتجاوز القياس، بل افتخارًا يوافق القياس الذي قسمه الله لنا قاعدة» (١٣). فإنّ الله شاء أن يبلغ رسوله إلى المؤمنين، في كورنثوس، ومعه «بشارة المسيح» (١٤). وأعطاه أن يطمح إلى أن يحملها إلى غيرهم (١٦)، ليطيب الفخر بالربّ وحده (١٧؛ أنظر: ١كورنثوس ١:

٣١؛ وقابل مع: إرميا ٩: ٢٢ و٢٣).

لن ندخل في مضمون دفاع الرسول عن تكليفه. ولكنّنا سنستند إلى قوله الذي يؤكّد أنّ الانتداب لكلّ خدمة «يوصي به الربّ» (الآية الـ١٨). فالخادم الأمين لا يقدر على أن يوصي بنفسه، لئلاّ يبدو غير ناضج، أي فاقدًا لبّه، ويشوِّه عمل الله. والراشد هو مَنْ يتحرّك بموجب مشيئة الله، أي تكليفه. أي هو مَنْ ينخرط في حياة كنيسته من دون أن يوحي لنفسه، أو لغيره، بأنّه يليق بهذا المنصب أو ذاك. غير هذا استخفاف بالله الذي يعرف ما تحتاج إليه كنيسته. ولا يستطيع راشد أن ينخرط بهدف منصب. هذه انطلاقة سيّئة. ولو وصل، فلا يصل إلى الله، بل إلى وكر الأفاعي الذي في قلبه.

وإذا قال الرسول في موقع آخر: «مَنْ رغب في الأسقفيّة، تمنّى عملاً شريفًا» (١تيموثاوس ٣: ١)، فلا يعني أنّ أحدًا قادر على انتداب نفسه بنفسه (أنظر: رسالة القدّيس إغناطيوس إلى أهل فيلادلفيا ١: ١). فالأسقفيّة عمل شريف، والانتداب لها عمل شريف أيضًا (وهذا يتبعه اختيار الكهنة والشمامسة). وإذا دقّقنا في المقطع الذي ورد فيه هذا القول الغنيّ، وما يحمله من وصايا «صادقة» (٣: ١- ٧)، لا يفوتنا أنّ هدف الرسول أن يذكّر بالفضائل التي يجب أن يتحلّى بها كلّ مرشّح للأسقفيّة. وما من فضيلة أعلى من الإخلاص الكامل الذي لا يبخل ببذل الدم، إذا دعت الحاجة، في سبيل الله ومجده (أعمال الرسل ٢٢: ٤، ٢٥: ١١؛ ١كورنثوس ٤: ٩؛ فيلبّي ١: ٢٠ و٢١). غير أنّ فهمنا لا يكمل إن لم نعتقد

أنّ بولس لم يرد، في هذا المقطع، أن ينحصر بتذكير المرشّحين للأسقفيّة بحقّ الفضائل العالية فحسب، بل جميع الذين تشرّفوا بهذه المسؤوليّة أيضًا. فَمَنْ جُعل أسقفًا، يجب أن يرغب في خدمته بإخلاصٍ دائم. لأنّ مَنْ نال درجةً عاليةً في الكنيسة، وخفّت رغبته، أو أهمل «شهادته الحسنة»، وقع، لا محالة، «في العار وفي فخّ إبليس» (الآية الـ٧).

لا أحد يغار على كنيسة الله أكثر ممَّن افتداها بدم وحيده. على هذا يؤسَّس كلُّ انخراط في الجماعة، وكلُّ حقٍّ وعيٍ أيِّ خدمة. ما من شكّ في أنّ غيرة الله لا تعني أنّ المؤمنين لا يغارون، هم أيضًا، على كنيستهم وحسن شهادتها. فإن لم يغاروا، لا نكهة لهم ولا فرادة. لكنّ كلّ غيرة صالحة إنّما هي استناد إلى غيرة الله (قابل مع: ١ملوك ١٠ و١٤). ولا تكون حقيقيّةً إن لم تتبنَّ القياس الذي أراده الله لكلّ تكليف. صحيح أنّ المؤمن، إذا غار على بيت الربّ وبلغ من الوعي مبلغًا، قد يزعجه بعض ما يظهر من بعض الذين كُلِّفوا الخدمة في الكنيسة. وقد يحلو له، بنيّة صالحة!، أن يأخذ مكانهم. وقد يحاول أن يقول رأيه لهذا أو ذاك من المؤمنين. وقد يتبنّى هؤلاء الرأي، ويحمله بعضهم إلى الأسقف. وقد يخضع الأسقف لرأي الطالبين! ولكنّ الغيرة الصالحة تمنعنا من هذا كلّه. الغيرة شرطها حسن المعرفة (رومية ١٠: ٢). والمعرفة الحسنة هي ألاّ نجتهد في التفكير، أو التصرّف، بعيدًا من الله وما أسّسه ضمانًا لكلّ خدمة.

ذلك بأنّ أحدًا لم يُفوَّض أن «يأخذ لنفسه هذه الكرامة إلاّ الذي دعاه الله كما دعا هارون» (عبرانيّين ٥: ٤). وفهمُ هذا القول، أيضًا، رهن

بما قلناه أعلاه. الله هو الذي يدعو. ويدعو الجميع إلى أفضل ما عنده، أي إلى القداسة. فما يجب أن يشغلنا جميعًا، وفي أيّ موقع كنّا، هو القداسة. المناصب (ربّما) لا تؤكّد القداسة. القداسة تؤكّد ذاتها. وَمَنْ أراد أن يختار لنفسه شيئًا أفضل، فليختر ما فضّله الله. غيرُ هذا لَهْوٌ و«عصافة تذروها الرياح». لا أريد أن أوحي بأنّ القداسة تمنعنا من قبول التكليف في هذه المسؤوليّة أو تلك، بل أن يصدق حبّنا لله وللإخوة، ونعيش ببرّ الالتزام. وإذا وقعت علينا «القرعة»، أن نشكر لله حبّه. ونشعر في قلوبنا، دائمًا، بأنّنا غير مستحقّين. ونسعى، بصدق كلّيّ، إلى أن نوافق هذا التكليف كلّ يوم، وكلّ اليوم، وإلى آخر أيّام حياتنا. فكم من المكلّفين تاهوا، وكم سقطوا! ضمان التكليف أن نبتغي قداسة الله «التي بغيرها لا يرى الربَّ أحدٌ» (عبرانيّين ١٢: ١٤).

هذا شرط اختيار مَنْ كُلِّفوا أن يقودوا أنفسهم والمؤمنين جميعًا إلى الله الحيّ.

النصح بدموع

في توديع شيوخ الكنيسة في أفسس، قال الرسول بولس: «فتنبّهوا واذكروا أنّي لم أكفّ مدّة ثلاث سنوات، ليل نهار، عن نصح كلّ منكم وأنا أذرف الدموع» (أعمال الرسل ٢٠: ٣١). وهذا القول، الذي جاء ضمن خطاب إرشاديّ طويل، كان همّ الرسول فيه أن يساعد الذين يخاطبهم على أن يثبتوا جميعًا بالحقّ، وأن يواصلوا ما قام به هو في سبيل «كنيسة الله التي اكتسبها بدمه» (الآية الـ٢٨).

يعبّر هذا القول المربّي (الآية الـ٣١)، خير تعبير، عن عمل كلّ مسؤول في الجماعة الكنسيّة، وأيضًا عن عمل كلّ مؤمن قَبِلَ خلاص الله، وصحّ ضميره، والتزم التزامًا فاعلاً. فالخدمة، في الكنيسة، تفترض بذلاً كبيرًا وسهرًا موصولاً على مَنْ أحبّوا الله، وانتسبوا إلى «ملكوت ابن محبّته» (كولوسّي ١: ١٣)، وتحديدًا على كلّ واحد منهم. فشرطُ الخدمة الجماعيّة الراضية العنايةُ بكلّ واحد من المؤمنين. وذلك بأنّ الجماعة هي التي تتكوّن من أعضاء تلقّى كلّ منهم، شخصيًّا، العناية النافعة التي تساعده على الالتزام بوعي، والتقدّم في مسيرة الخلاص. ألم يقل الربّ، في مثل «الخروف الضالّ»: «هكذا يكون الفرح في السماء بخاطئ واحد يتوب أكثر منه بتسعة وتسعين من الأبرار لا يحتاجون إلى التوبة» (لوقا ١٥: ٣- ٧)؟ كلّ خروف له أهمّيّته في قطيع المسيح.

لقد اعتنى بولس بأن ينصح كلّ واحد من المسؤولين في أفسس.

وهذا ما أراد منهم أن يذكروه، ليعتنوا، هم أيضًا، بأن ينفّذوه مع المؤمنين جميعًا. أرادهم أن يعرفوا أنّ النصح رضًا وحماية، وأنّه حاجة ملحّة في ظلّ ظروف لا يغيّرها جيل. فالخطايا مغرية دائمًا. وأعداء الإيمان، الذين يوحون بخرافاتهم، موجودون في كلّ زمان ومكان، ويهدّدون المؤمنين الضعفاء. والناصح رقيب. والرقيب شأنه ألاّ يهمل نصحه، حتّى لا تتشتّت الرعيّة، فيفقد تكليفه. وما يلفت كثيرًا أنّ بولس، بقوله، لم يكتفِ بأن يشير إلى أنّه كان يعمل على نصح كلّ واحد منهم بكلامه فحسب، بل فيما «يذرف الدموع» أيضًا. وهذا قاله، لا ليوحي بأنّه يحتاج إلى شفقة أو عطف من الناس، ليرتضوا نصحه، ولا ليستميل أحدًا بدموعه. كلامه لا يمكن أن يعني هذا البتّة. لكنّه كشف سرّ قلبه، ليعلّم مَنْ يخاطبهم، ويعلّمنا نحن أيضًا، أنّ النصح، وإن خرج من الشفتين، فإنّما هو عمل القلب أوّلاً. كلّ كلمة راضية مصدرها قلب المتكلّم. «من فيض القلب يتكلّم اللسان» (متّى ١٢: ٣٤). فالرسول يعرف، ويريد المسؤولين، في كلّ جيل، أن يعرفوا، ويسكبوا قلوبهم في رعاية الإخوة، ولا سيّما أن يصرفوا حياتهم في حماية المؤمنين ومحاربة الخطيئة التي، إن استفحلت، ترمي الساقطين بعيدًا من خلاصهم. إذًا، كان بولس يذرف الدموع، ليؤسّس نصحًا حارًّا، ويبيّن، تاليًا، قربه من الذين يعتني بهم وبتقدّمهم. فالدموع دلالة على القربى. والكلام الطيّب المقرون بدموع دليل على الأبوّة الحقيقيّة.

كلّ مسؤول أب. نحن، في كنيستنا، نسمّي الكهنة آباء لا تغنّيًا بموقعهم، بل لكونهم يلدون أولادًا لله «بالبشارة في المسيح يسوع»

(١كورنثوس ٤: ١٦). ومن دلائل الأبوّة الصالحة أنّ الأب يعتني بأولاده دائمًا، أي يلدهم ببشارة الله. ومن دلائلها أنّه لا يميّز بين ابن وآخر. وإذا جاز له أن يميّز، فإنّه يفضّل العاقّ، ليعمل على إصلاحه. هذا ما أكّده القدّيس إغناطيوس الأنطاكيّ، بقوله: «لن يكون لك فضل إذا أحببت التلامذة الصالحين. روّض الأشرار، وأخضعهم بالوداعة» (أنظر: رسالته إلى بوليكربُس ٢: ١). والأب لا يرعى أبناءه في صغرهم فحسب، بل يبقى أبًا لهم في كلّ وقت. لا يعني هذا أنّ الأب همّه، برعايته، أن يسيطر على أولاده، ويؤخّر وعيهم وتقدّمهم، أو أن يفقدهم شخصيّتهم. هذا من أخطار الرعاية غير الراشدة. لكنّه يعني أنّه يعتني بهم، ليساعدهم على أن يكتشفوا مواهبهم التي تنفعهم، وتنفعه، وتنفع الجسم الكنسيّ كلّه. بولس خَبِرَ، لمّا قال: «واذكروا أنّي لم أكفّ مدّة ثلاث سنوات، ليل نهار»، أنّ أحدًا لا يمكن أن يعي مواهبه وتكليفه ما لم يُتَعهّد تعهّدًا موصولاً، في الليل والنهار. النصح ليس إرشادًا طارئًا فقط، أو يعالج أزمةً عابرةً فحسب، أي إن أخطأ أحد الإخوة مثلاً، أو غرّه كلام الغرباء. فهذا يمكن أن يحدث باستمرار. وَمَنْ تقدّم بالرضاء، يحتاج، أيضًا، إلى تعهّد دائم، ليزداد تقدّمًا. المؤمن، إذا صحّ سعيه ونما حبّه وفهمه، إن أُهملت رعايته، فقد يزوغ أو يسقط، ولا سيّما إذا شعر بأنّه قادر على أن يتقدّم من دون عناية الإخوة. النصح المستمرّ ضمانة لكلّ تقدّم صحيح. الذين يعملون في الكنيسة يعرفون أنّهم كثيرًا ما كانوا يظنّون أنّ هذا أو ذاك كان يلتقط التعليم والإرشاد كما يلتقط الخبز مَنْ لم يأكل لأيّام عدّة، وأنّه هو ذاته ظهر، في هذا الموقف أو

ذاك، كما لو أنّه لم تعلق بذهنه كلمة نصح واحدة. الذين صدمهم الناس يعرفون حقًّا قيمة ما قاله الرسول عن العناية الشخصيّة المستمرّة. والذين رافقوا تقدّم المتقدّمين يعرفون أيضًا.

قاعدة كلّ رعاية صحيحة أن نقتدي بما فعله الرسول في أفسس. فالجماعة لا تقوم من دون رعاية موصولة. والمسؤول، وكلّ مؤمن مسؤول، شأنه أن يسهر على الذين ائتمن على تقدّمهم بنصح، حتّى يصدق جهده، وينمو المؤمنون بماء عينيه، كما ينمو نبات الأرض بماء السماء.

إعانة أهل البيت

مِنْ ضمن وصايا عديدة سطّرها بولس، طلب من تلميذه تيموثاوس أن يوصي المؤمنين بأن يعتنوا بذويهم، بقوله: «إذا كان أحد لا يُعنى بذويه، ولا سيّما أهل بيته، فقد جحد الإيمان وهو شرّ من غير المؤمن» (الرسالة الأولى ٥: ٨).

ما يبدو، مؤكّدًا، أنّ هذه الوصيّة تتعلّق بإعانة الأرامل المحتاجات تحديدًا. فوجودهنّ ظاهر في حياة الكنيسة الأولى، كما يظهر في سياق النصّ (٥: ٣- ١٦؛ أنظر أيضًا: أعمال الرسل ٩: ٣٩- ٤١؛ يعقوب ١: ٢٧)، وفي كتابات الأوائل (أنظر مثلاً: الرسالة المنسوبة إلى برنابا ٢٠: ٢؛ رسالة القدّيس إغناطيوس إلى أهل أزمير ٦: ٢، ١٣: ١؛ ورسالته إلى بوليكربُس ٤: ١، ٨: ٢؛ وكتاب الراعي لهرماس، الرؤيا الثانية ٤: ٣). ويريد بولس أن تسندهنّ جماعة المؤمنين، أي أن تقدّم لهنّ كلّ ما يحتجن إليه من مال ورعاية، لا سيّما أن تحضّ مَنْ يخصّهنّ، أولادًا كانوا (الآية الـ١٤) أو أحفادًا وأقرباء (الآية الـ١٦)، على القيام بواجبهم نحوهنّ، ويساعدوهنّ، إن كانوا مؤمنين بالله، وقادرين على المساعدة.

على كون طلب الرسول يحضّنا على إعانة الأرامل، ولا سيّما المسنّات، إلاّ أنّ هذا لا يمنعنا، توسيعًا للفائدة، من أن نعتبر أنّ كلامه لا يختصّ حصرًا بالأرامل اللواتي تربطنا بهنّ قرابة جسديّة، بل بكلّ قريب ليس له مَنْ يعينه، وتاليًا بكلّ محتاج في الأرض.

مَنْ يقرأ هذا الطلب الملزم بإمعانٍ، لا يفتْهُ أنّ الرسول ميّز بين «اللواتي هنّ أرامل حقًّا»، أي المستحقّات اللواتي حُرمن كلّ معونة عائليّة، وبين اللواتي لا يستحققن المعونة. فثمّة أرامل حقيقيّات تشهد لهنّ الجماعة بالتزامهنّ واختيارهنّ حياة الفضيلة، وثمّة مَنْ كنّ ما زلن فتيّات وحياتهنّ مضطربة.

غير أنّ هذه الوصيّة، في الواقع، تلتقي، أو تتفرّع من وصيّة إكرام الوالدين (خروج ٢٠: ١٢؛ أحبار ١٩: ٣؛ تثنية الاشتراع ٥: ١٦؛ متّى ١٩: ١٩؛ لوقا ١٨: ٢٠؛ أفسس ٦: ٢). فالوالدان، متى كبرا أو ترمّل أحدهما، إعانتهما طلب إلهيّ، وواجبة في كلّ حال. ولا يعني هذا أن يقدّم الأولاد لوالديهم الاحترام في صغرهم، أو ما داموا هم يلوذون بهم فحسب، بل، أيضًا، أن يساعدوهم، إذا شبّوا، وغدوا منتجين، ولا سيّما إن بات ذووهم «في ضيق» (الآية الـ١٠؛ أنظر أيضًا: متّى ١٥: ١- ٩). فلا يليق بِمَنْ آمن بالله أن يهمل «أهل بيته». فإن كان الله يطلب أن يحبّ المؤمن جميع الناس من دون تمييز، وأن يساعد المحتاجين منهم على قدر استطاعته، وأن يساعدهم كثيرًا إن كان قادرًا، فهو، بالأحرى، يطلب منه أن يحبّ أهل بيته، ويعتني بهم وبأمورهم أوّلاً. هذا من باب الإكرام الواجب، لئلاّ يبدو الولد عقوقًا، أي لئلاّ يشقّ عصا طاعة ذويه، ويتركهم، بلا شفقة عليهم أو إحسان إليهم، ويستخفّ بهم. وهذا كلّه، إن حدث، عصيان لله الآمر.

هذا ما دفع بولس إلى أن يقول، في مَنْ يهمل ذويه، إنّه: «قد جحد الإيمان». وذلك بأنّ الإيمان ليس تصديقًا ذهنيًّا أنّ الله موجود فحسب.

فحقّه يفترض، أيضًا، أن يظهر في حياة الإنسان وممارساته كلّها، ولا سيّما في علاقته بِمَنْ يخصّونه. فإذا بدا المؤمن أنّه يعرف كلّ علم، ومحا حجارة الكنيسة بمجيئه إليها ومشاركته في صلواتها وأنشطتها، لا يكون شيئًا في عيني الله، إلاّ إذا أظهر، في حياته، أنّ الربّ ربّه، وبيّن إدراكه في كلّ أقواله وتصرّفاته. وهذا من معانيه أنّ المؤمن، إن أحبّ ذويه (وكلّ إنسان)، وساعدهم على غير صعيد، لا يعتبر أنّ ما يعمله دافعه ما تعلِّمه هذه الدنيا من أخلاق، أو تقوله من خير، بل الله الذي يؤسِّس عليه حياته وكلّ ما يفعله في هذا الوجود. المسيحيّ لا ينكر على الدنيا خيرها. لكنّه لا يطلع منها، بل يهبط عليها من السماء. ومعنى ذلك أنّه يؤسِّس حياته على شريعة المسيح التي شرط إتمامها أن «يحمل بعضنا أثقال بعض» (غلاطية ٦: ٢). ولذلك إذا جار المؤمن عن هذا الطريق، يكون «جاحدًا إيمانه»، وتاليًا «شرًّا من غير المؤمن». وذلك، ببساطة، لأنّ غير المؤمن، إن لم تتسنَّ له فرصةُ معرفةِ مشيئةِ الله، فقد يخفّف جهله شرّه. أمّا المؤمن، فمن واجبه أن يعرف كلّ شيء. ولذلك شرّه، إذا عصى، يفوق، بما لا يقاس، شرّ مَنْ لا يعرف. شرّه أنّه يعرف، ويتصرّف كما لو أنّه لا يعرف. وليس من جهل وإهمال يزكّيان.

مِنْ مقتضيات الحقّ، في زمنٍ كثرَ فيه التبرير وتفضيل الذات، أن تكون هذه الوصيّة أوّل واجب يذكره الذين بنوا قلوبهم على صخرة الحقّ. فليس من واجب أعلى من واجب المحبّة، ولا سيّما محبّة «أهل البيت». وإذا خصّصنا تكريم الوالدين بعد كبر، فنرى أنّ إعانتهما واجب مسجّل

في لحمنا ودمنا منذ تكويننا، أي أنّ الله فطرنا عليه. وهذا لا يقوله، ببلاغة، أن نؤمّن لهما حاجاتهما المادّيّة فحسب (إن كانا محتاجَيْن)، بل، أيضًا، أن نعتني بهما، وأن نزورهما باستمرار، إن كانت لنا بيوتنا، وأن نخصّص لهما كلّ الوقت إن مرض أحدهما، وأن نحتضنهما في بيوتنا إن عجزا، أو عجز أحدهما، أو ترمّل. فَمَنْ كانا لنا بيتًا، لا يليق بنا وبهما أن نرميهما في عجزهما بعيدًا منّا. حضنهما يغنينا وَمَنْ لنا والينا، ويبارك دعاؤهما الطيّب حياتنا، ويزيداننا من حبّهما الذي هو زاد لنا ودواء إذا أثقلتنا الهموم، وضاقت بنا الأيّام، وأرهقتنا المصاعب.

أن نعتني بأخصّائنا جميعًا (وكلّ محتاج يخصّنا)، ولا سيّما الأرامل اللواتي هنّ «هيكل للربّ»، كما يقول القدّيس بوليكربُس (أنظر: رسالته إلى أهل فيلبّي ٤: ٣)، دليل صريح على إيماننا بالله الذي ضمّنا إليه بعد أن عجّزتنا الخطيئة، وجدّد لنا، بحبّه، شبابًا لا يشيخ.

خدمة القدّيسين

في الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس، يصف الرسولُ بولسُ أسرةَ أسطفاناس، التي اهتدت باكرًا إلى المسيحيّة بنوالها المعموديّة وحدها عن يده (١: ١٦)، بقوله: «إنّها وقفت نفسها على خدمة القدّيسين» (١٦: ١٥).

تدلّنا هذه الآية على نوع من تخصيص الحياة لله. عائلة «وقفت نفسها على خدمة القدّيسين»، أي المؤمنين (أنظر مثلاً: ١كورنثوس ١: ٢، ٦: ١؛ ٢كورنثوس ١: ١، ١٣: ١٢؛ أفسس ١: ١، ٢: ١٩، ٦: ١٨؛ فيلبّي ١: ١، ٤: ٢١ و٢٢؛ كولوسّي ١: ٢؛ فيلمون ٤ و٧؛ عبرانيّين ١٣: ٢٤)، ولا سيّما أهالي كورنثوس. لا نعلم ما هو، تحديدًا، نوع العمل الذي يقوم به أفراد هذه العائلة. هل يعاونون، مثلاً، الرسول بالاعتناء بمؤمني كنيستهم، أو يخدمون الفقراء والمعوزين، أو هل نقل إليه أحدهم أخبارًا عن وضع الجماعة في كورنثوس أو حمل تساؤلاتهم (راجع: أعمال الرسل ٦: ١- ٦؛ رومية ١٢: ٧ و١٣، ١٥: ٢٥ و٣١؛ ٢كورنثوس ٨: ٤، ٩: ١ و١٢ و١٣؛ عبرانيّين ٦: ١٠)؟ غير أنّ ما نعرفه أنّ لهم خدمتهم الثابتة، وأنّ الرسول طلب من المؤمنين، في كورنثوس، أن «يذعنوا لأمثال هؤلاء» الذين استطاعوا أن يجمعوا حولهم آخرين يعملون معهم بجهد ظاهر (الآية الـ١٦).

ما يهمّنا، في هذا القول المربّي، هو مضمونه. عندنا عائلة يخدم

أعضاؤها جميعًا في الكنيسة. وهذا يعني أنّ الالتزام الكنسيّ لا يقتصر على المشاركة في الخدمة الإلهيّة والصلوات التي تقام في الرعيّة، أو اجتماعاتها التعليميّة فحسب، بل يفترض، إلى ذلك، أن يفعّل كلّ مؤمن موهبته، التي نالها في معموديّته، بوضعه نفسه وإمكاناته في تصرّف الجماعة. وَمَنْ خدم أيًّا من الخدم الصالحة، يستحقّ أن «ينال منزلةً رفيعةً» (١تيموثاوس ٣: ١٣)، وأن يذعن المؤمنون له. بمعنى أن يقدّروه، ويتمثّلوا به. فالخدمة موهبة من مواهب الروح القدس (رومية ١٢: ٧؛ ١كورنثوس ١٢: ٥؛ ١بطرس ٤: ١١). وكلّ موهبة، مهما كان ظاهرها وضيعًا، تنفع الكلّ، أي تساهم في بنيان الكنيسة (اقرأ: ١كورنثوس ١٢– ١٤). ولا يخفى أنّ الربّ يسوع اتّصف بالخدمة، أي سمّى نفسه «الخادم» (متّى ٢٠: ٢٨؛ مرقس ١٠: ٤٥؛ لوقا ٢٢: ٢٧)، وخدم، وعلّم، وشفى، ومات وقام. وأنّه، تاليًا، رضي بأن يخدمه المؤمنون شخصيًّا (متّى ٢٧: ٥٥؛ لوقا ٨: ٣؛ يوحنّا ١٢: ٢٨)، أو من طريق خدمة الآخرين، ولا سيّما الفقراء (متّى ٢٥: ٣١– ٤٦). ولا يخفى، أيضًا، أنّ الرسل اعتبروا رسالتهم «خدمةً» (أنظر مثلاً: أعمال الرسل ١: ١٧ و٢٥، ٦: ٤، ٢٠: ٢٤؛ ٢كورنثوس ٤: ١، ٦: ٣؛ فيلبّي ٢: ٢٢؛ ٢تيموثاوس ١: ١٨، ٤: ٥ و١١)، وأنّهم حضّوا المؤمنين على أن «يخدموا بعضهم بعضًا» والناس جميعًا (غلاطية ٥: ١٣؛ ١بطرس ٤: ١٠).

معنى ذلك أنّ الخدمة، التي هي السمة الرئيسة لكلّ تلميذ (كما يؤكّد القدّيس غريغوريوس النيصيّ)، غيرُ محصورة ببعض، أي بالكهنة

مثلاً. لكنّ كلّ عضو، في الكنيسة، مدعوّ إلى أن يقوم بما كلَّفه الله أن يعمله. قد يسأل مؤمن: ماذا يريدني الربّ أن أعمل؟ أو: ما هي موهبتي الخاصّة؟ الجواب السريع عن هذا السؤال هو أنّ المؤمن يعرف ما يريده الربّ منه باندماجه في حياة رعيّته. البعيد، أو الذي يكتفي بمشاهدة ما يفعله غيره، يصعب عليه أن يعرف، أو أن يسأل، ويهتمّ. ولقد أعطي الإخوة المؤمنون أن يلاحظوا كلّ عضو «حاضر» ومحبّته وغيرته على الله وشعبه، ويساعدوه على اكتشاف موهبته وتفعيلها بوعي وجدّيّةٍ وثبات.

أن يغبّط الرسول إحدى العائلات الخادمة، أمر يطرح علينا سؤالاً مؤلمًا، وهو: ماذا تفعل العائلات المؤمنة اليوم؟ ما يبدو، ظاهرًا، أنّ أكثر ما يفعله بعض المتزوّجين أنّهم يأتون وأولادهم، ليشاركوا في صلوات كنيستهم. وهؤلاء قلّة عزيزة. وقد يكلَّف بعضهم أن يقوموا بأدوار قليلة هنا وهناك. العائلة الخادمة، أو الشاهدة، نادرٌ وجودُها. معظم الناس يهملون خدمتهم بحجّة أنّهم قد تزوّجوا مثلاً. ويعتبرون أنّهم مكلَّفون إلهيًّا الاهتمام ببيوتهم وأولادهم، ولو على حساب التزامهم الكنسيّ. الزواج، في هذه الحالة، عذر للمخالفة (لوقا ١٤: ٢٠)! وترى أنّ الكثيرين يبرّرون إهمالهم بأنّهم يعملون، ليعينوا عائلاتهم. والعمل، في هذه الحالة، هو عذر للمخالفة أيضًا (لوقا ١٤: ١٨ و١٩)! (وهذا يمكن أن ينطبق على الذين يهملون الخدمة إهمالاً كلّيًّا بدافع الدراسة مثلاً). كلّ إنسان مؤمن دعوته أن يعي أنّ الله يريده أن يعرف أنّ عمله الأساس هو الشهادة لله في الجماعة والعالم، وأنّه إنّما يتّخذ مهنةً في الأرض، ليرتزق، ويدبّر حياته

وحياة عائلته، و«يسعف الضعفاء» (أعمال الرسل ٢٠: ٣٥). العمل، وكلّ ما يشبهه، إذا أبعدنا عن الله وخدمة كنيسته، تبطل منفعته الحقيقيّة. وهذا ما أكّده القدّيس إغناطيوس الأنطاكيّ، بقوله: «المسيحيّ لا يملك نفسه وليس بسيّدها، إنّ وقته لله ولا يعمل إلاّ من أجله» (أنظر: رسالته إلى بوليكربُس ٧: ٣).

أسرة أسطفاناس، التي غبّطها بولس، خدمت في كنيسة كورنثوس. وهذا يعني أنّ الخدمة واجبة، أي أنّ كلّ عائلة مسيحيّة مدعوّة إلى أن تخدم. فالحياة في المسيح تفترض أن نرى جميعًا ماذا يريد الربّ منّا أن نعمله، ونعمله. وذلك حتّى لا «نطمر وزناتنا»، وحتّى يكافئنا الربّ الذي لا يبطل الخدمة (يوحنّا ٥: ١٧)، ليفتدينا، ويربحنا لأبيه القدّوس.

«فلنصنع الخير إلى جميع الناس»

يختم الرسول رسالته إلى كنيسة غلاطية بسلسلة وصايا متنوّعة في المحبّة والإصلاح والعمل والمشاركة. آخِرُ هذه الوصايا قولُهُ: «ما دامت لنا الفرصة إذًا، فلنصنع الخير إلى جميع الناس، ولا سيّما إلى إخوتنا في الإيمان» (٦: ١٠).

مَنْ قرأ المواقع التي يتكلّم فيها بولس على فعل الخير (أنظر مثلاً: رومية ١٢: ٩ و٢١، ١٥: ٢؛ ٢كورنثوس ٥: ١٠؛ أفسس ٦: ٨؛ ١تسالونيكي ٥: ١٥؛ ٢تسالونيكي ٣: ١٣؛ طيطس ١: ٨، ٣: ١٤؛ فيلمون ١٤)، لا يفوته أنّ هذا الفعل، عنده، أساس من أسس وحدة الجماعة، ودلالة من الدلالات على أنّ الله هو الذي يسوس كنيسته، ويحكم شهادتها في العالم. فالخير غير الشرّ. والمؤمنون فرادتهم أنّهم يتبعون ربّهم في كلّ شيء، ويدلّون عليه في عالم يعدو وراء أوهامه. ولا يفوته، تاليًا، أنّ هذا الحثّ المتكرّر، هنا وثمّة، سببه وعي الرسول أنّ الشيطان ما زال «يزأر»، ويحرّض الناس على ارتكاب الشرور وكلّ إهمال، وأنّ الإنسان، بطبيعته، ميّال إلى أن يردّ الشرّ بالشرّ، وأنّ هذا الميل يولّد ردود فعل لا تليق بِمَنْ أرادهم الله فاعلي خير، لأنّها تفرح الشيطان، وتسيء إلى كنيسة الله. ولا يفوته، أيضًا وأيضًا، أنّ هذا الحثّ المربّي ضرب لكلِّ وَهْم، أو شرّ، أو فرديّة، أو بطالة. فالإنسان، الذي يأبى فعل الخير، أو يرفض أن يظهر فهمه في تصرّفاته وحياته، قد يرتاح إلى وَهْمِ خداع نفسه بأنّه يرضي الله إذا

صلّى، أو ازداد فهمه. وكلّ وَهْمٍ خدّاع، لا يرى في فعل الخير ضرورةً لازمةً، ضربٌ للجماعيّة التي هي عنوان الانتساب إلى جسد المسيح.

يبدأ الرسول حثّه بقوله: «فما دامت لنا الفرصة». والفرصة هي زمن مؤقّت يعطيه الله للمؤمنين قَبْلَ دينونته الأخيرة، وذلك ليعملوا الخير. أن نعتبر أنّ حياتنا فرصة أُعطيناها، لنرضي الله في كلّ ما يطلبه من عمل الخير، أمر يبعد عنّا كلّ كسل ممكن أن يعترينا، وكلّ تفكير باطل يوهمنا بأنّ حياتنا طويلة وأنّ دينونة الله بعيدة. فحياتنا، إن اعتبرناها «فرصةً»، أي عطيّةً من الله، نبعد عنّا كلّ وَهْم خدّاع يريد أن يجذبنا إلى أفكار تحضّنا على الكسل والبطالة. فعمل الخير، بجدّيّة دائمة، يرتبط، ارتباطًا صميمًا، بوعينا أنّ الله سيديننا على أساس أعمالنا (متّى ٢٥: ٣١- ٤٦).

الجزء الأوّل من طلب بولس يحضّنا على أن «نصنع الخير إلى جميع الناس». وذلك بأنّ فرادة المسيحيّين أنّهم يحبّون الناس جميعًا. بهذا أمرهم ربّهم. فإذا حلا للربّ أن يهتمّ بأمر الناس جميعًا من دون تمييز ومحاباة (متّى ٥: ٤٥)، فهذا عينه يجب أن يحلو للمؤمنين به. وفعل الخير يتجلّى في الابتعاد عن الشرّ، وفي كلّ خدمة ونشاط صالحين، ولا سيّما في الإحسان وإعانة المعوزين. وهذه كلّها يفعلها الذين آمنوا بأنّ الربّ قام، وغلب بموته الموت. فالبرّ نصر بالله. وكلّ عمل صالح، أو خدمة بارّة، هو نصر به أيضًا. ولذلك فإنّ الذين آمنوا بالقيامة يريدونها أن ترتسم على كلّ وجه، أي إنّهم يرفضون الموت إذا رأوا مظاهره على وجوه الناس. فللموت مظاهر. الخطيئة، والفقر، والجوع، والمرض، والجهل، كلّها، وكلّ

واحدة منها، من مظاهر الموت. أن نصنع الخير إلى الجميع، هو أن نريدهم أحياء وأبرارًا وأقوياء في كلّ ما يرضي ربّنا. ولا نفعل هذا بغرض، أي لا نشترط على مَنْ يحتاج إلى «القيامة» شيئًا. فالله، لمّا أقام ابنه من بين الأموات وأهدانا قيامته، لم يطلب شيئًا من أحد. ولا يمكننا أن نضع أساسًا لفعل الخير «غير الأساس الموضوع».

ثمّ إذا كان من الواجب أن «نصنع الخير إلى جميع الناس»، أي أن نحبّهم ونعتني بأمورهم، فمن الواجب أن نصنعه أيضًا، أو خصوصًا، إلى المؤمنين الذين هم شركاؤنا في مائدة الله وبرّه. فَمَنْ كان شريكك في مذاق الحياة الأبديّة، يجب أن تحسبه شريكك في خيرات الحياة الأرضيّة (تعليم الرسل الاثني عشر ٤: ٨). كلّ تصرّف كنسيّ صحيح ينبع من وعينا أنّنا أعضاء في شعب الله، أي في عائلته، وأنّ ربّنا واحد، ومخلّصنا واحد، ومعلّمنا واحد. وَمَنْ كان ربّه ومخلّصه ومعلّمه واحدًا، يؤسِّس حياته عليه وحده. وما يلفت، هنا، أنّ الرسول سمّى أعضاء الكنيسة، الذين يحثّنا على فعل الخير إليهم، «إخوتنا في الإيمان». ولفظة «إخوة» عزيزة على قلبه، كما هي عزيزة على قلب الكنيسة وضميرها في غير جيل. فالمؤمنون إخوة، لأنّ الله، الذي يجمعهم، هو أبوهم جميعًا. الرابط بين المؤمنين في الكنيسة هو الله. ولذلك فإنّ فهمَنا هذه اللفظةَ لا يكون كاملاً إلاّ إذا اعتبرنا أنّ الرسول يحسب أنّ الخير، الذي نعمله مع الإخوة، إنّما نعمله، أوّلاً وأخيرًا، مع الله أبي الجميع. فالله، إذا وقع حبّنا على «صغاره»، هو الذي يتلقّى عملنا، ويحسبه له. وكلّ فقراء الأرض صغاره، لأنّهم صورة المسيح «الذي افتقر

لأجلنا».

فعل الخير إلى الناس جميعًا، «ولا سيّما إلى إخوتنا في الإيمان»، واجب مقدّس. وسيبقى هذا الفعل فرصتنا السانحة إلى أن يختم الله زمان الناس، ويقف الجميع أمام عرشه عراةً، عراةً إلاّ من الحبّ الذي بذلوه كُرمى لوجه المسيح الغالب ومجده وحده.

«صلّوا من أجلنا»

في سياق توصياته الأخيرة، يقول كاتب الرسالة إلى العبرانيّين: «صلّوا من أجلنا، فإنّنا واثقون أنّ ضميرنا صالح، وأنّنا نرغب في أن نحسن السير في كلّ أمر» (١٣: ١٨). هذا قاله الرسول بعد أن طلب من قرّائه أن يطيعوا رؤساءهم، ويخضعوا لهم بفرح، لأنّهم «يسهرون على نفوسهم سهر مَنْ يُحاسب عليها» (الآية الـ١٧).

ما يأخذنا، هنا، هو صلاة المؤمنين بعضهم من أجل بعض. فالالتزام الكنسيّ قاعدته المحبّة والثقة بالله وبنعمه القادرة على معونة الذين يخلصون له الودّ في مسيرة جهادهم. الالتزام جهاد في سبيل إدراك المُنى، أي الحياة الأبديّة. والصلاة دعم لهذا الجهاد الراجي، لأنّها تؤكّد أنّ الله هو الذي يمكّن المؤمنين، بنعمه، من تنفيذ إخلاصهم كما يليق.

طبعًا، لا يُستثنى أحد من الحاجة إلى صلاة الإخوة من أجله. فوصيّة الرسول، كما تبدو للقارئ المدقّق، تخصّ جميع الناس، ولا سيّما المسؤولين في الكنيسة. فهو، بعد أن ذكّر المؤمنين بواجب الطاعة للرؤساء، طلب منهم أن يصلّوا «من أجلنا»، أي أوّلاً من أجله ومن أجل رؤسائهم. والرئيس من ملكاته الثابتة أن يكون «ضميره صالحًا»، وأن تكون له الرغبة الشديدة في «أن يحسن السير في كلّ أمر». فالصلاة دعم للصلاح الحيّ والرغبة الحسنة. هذا لا يعني ألاّ نرفع الصلاة، بحرارة كلّيّة، من أجل مَنْ ساء ضميره أو ضلّ عن طريق الحقّ، فالله له قدرته على صنع العجائب.

لكنّ هذه الوصيّة تطلب، أوّلاً، الصلاةَ مواكبةً للخير القائم ودوام الطاعة اليوم وغدًا، وذلك حتّى يثبتا، ويزيدا.

الصلاة من أجل الذين خفّ وهج صلاح ضميرهم أو انتفى، ومن أجل الذين بردت همّتهم أو بطلت، يطلبها الله، وتعنيه كثيرًا من دون أدنى شكّ. وذلك بأنّها تبيّن أنّ الذين يرفعونها ثابتون في المحبّة، ويعون أنّ الله هو الرئيس الفعليّ للكنيسة التي تجاهد في العالم، ويريدونه أن يتدخّل، ويبيّن رعايته للناس، ولا سيّما إذا كان مَنْ كُلِّفوا الرعاية لاهين عنها، ويصرفون حياتهم عبثًا. والصلاة من أجل اللاهين، أو الذين جاروا عن طريق الحقّ، لا تخلو من رجاء أن يعيد الله «المحبّة الأولى» إلى كلّ مَنْ حصل على مكانة عالية في حياة الكنيسة، وأهمل. ألم يقل يسوع لتلميذه المزمع أن ينكره: «هوذا الشيطان قد طلبكم، ليغربلكم كما تغربل الحنطة. ولكنّي دعوت لك ألاّ تفقد إيمانك. وأنت ثبّت إخوانك متى رجعت» (٢٢: ٣١ و٣٢)؟ فالصلاة الحارّة من أجل الذين وقعوا في فخّ إبليس قد تعيد إليهم، إذا تجاوبوا معها، إيمانهم ومكانتهم وفعلهم في الجماعة. وذلك لأنّ نعمة الله لا تهجر مَنْ حازها وأخطأ هجرانًا كلّيًّا. فالله أقوى من الخطيئة ومرتكبيها، ولو أنّه لا يرتضي أن يردّ الناس إليه غصبًا عن إرادتهم.

غير أنّ ما يطلبه الرسول، بالأخصّ، هو الصلاة التي تدعم الصلاح وفعل الخير. فإن كانت «كلّ عطيّة صالحة وكلّ هبة كاملة تنزل من علُ من عند أبي الأنوار» (يعقوب ١: ١٧)، فهذا إنّما يعني أنّ الله هو الذي يثبّت عطاياه في النفوس التي تدرك عريها ومحدوديّتها. الصلاة من أجل

الآخرين الفاعلين خير تعبير عن هذا الوعي. هي خير تعبير عن أنّ القوّة من الله، وليست من بشر. فالرسول، الذي لا يرى أنّ ثمّة شيئًا فيه يعثّر ضميره، ويعترف بأنّه يريد أن يفعل كلّ ما يرضي الله دائمًا، يُظهر حاجته إلى الصلاة، أي يُظهر فقره، وفي آنٍ وعيه أنّ ثباته في ما هو عليه، ورجاءه أن يزداد تقدّمًا في مسيرة القداسة، نعمةٌ من الله ينالها بإخلاصه ودعاء الإخوة ودعمهم. هو لا يرى نفسه كاملاً وحده. ويؤمن بأنّ الكنيسة الداعية تساعده في مسيرة جهاده. الله قويّ، وكنيسته، التي لا تكفّ عن الدعاء، هي قادرة به على أن «تعمل بقوّة عظيمة» أيضًا (يعقوب ٥: ١٦).

أن تصلّي من أجل الآخرين أمر يعني أنّك تحبّ الخير بعامّة، وأنّك تريد الناس أن يزدادوا صلاحًا، وأن يتقدّموا في الطاعة. فالصلاة من أجل الآخرين فعل. لقد طلب الرسول أن يصلّي المؤمنون من أجله، حتّى يدلّوا على رغبتهم الشديدة في أن يُخدَم الله، ويشاركوا، هم أيضًا، من طريق الصلاة، في الخدمة (أنظر مثلاً: رومية ١٥: ٣٠؛ فيلبّي ١: ٣ و٩- ١١، ٤: ٦؛ ٢كورنثوس ١: ١١؛ كولوسّي ٤: ٣؛ أفسس ١: ١٦، ٦: ١٨ و١٩؛ ١تسالونيكي ٥: ٢٥؛ ٢تسالونيكي ٣: ١)، وحتّى يبيّنوا، تاليًا، محبّتهم لنجاح الله في خدّامه وفي كلّ مَنْ يعمل رضاه. فَمَنْ يصلِّ للآخرين الذين أولاهم الله مسؤوليّةً في الجماعة (ولكلّ الناس)، يعترف بفعل الله في غيره، ويدلّ على أنّه يريد أن يصيب غيرُهُ كلّ نجاح يرضي الربّ. وكلّ نجاح مخلص ينفع الجسم الكنسيّ كلّه. الصلاة بعضنا من أجل بعض نوع من أنواع التآزر المفيد لبنيان الكنيسة. وليس من بنيان كامل لا يكون عصبه

الدعاء، الدعاء المستمرّ.

لقد ترك لنا الرسول هذه الوصيّة، لنسلك بهديها. وكم نحن جميعًا، في أيّ موقع كنّا، بحاجة اليوم، وكلّ يوم، إلى صلاة الإخوة. فليس من تواضع أكثر من أن تطلب، بصدق، أن يصلّي لك الآخرون. وليس من حبّ أعظم من أن نحمل الإخوة في صلاتنا، ونقدّمهم قربانًا على مذبح الله. هذا برهان ساطع على أنّنا نؤمن بأنّ الله هو، وحده، فاعل الصلاح ومساعد «الراغبين في أن يحسنوا السير في كلّ أمر».

إن شاء اللّه

ثمّة عبارات عدّة يعتبرها الكثيرون أقوالاً شائعةً، أو حكمًا عامّةً، ويتوارثونها أبًا عن جدّ، ويستعملونها من دون أن يفطنوا، دائمًا، إلى أنّها من مسلّمات إيماننا الحيّ، أي وردت في كتبنا المقدّسة. وتجد أنّ بعضنا يردّدون، في أحيان كثيرة، هذه العبارات من دون أن يستوقفهم مضمونها.

مِنْ هذه العبارات ما ورد في رسالة يعقوب الرسول الجامعة، وأعني قوله: «هلاّ قلتم: إن شاء الله، نعيش ونفعل هذا أو ذاك» (٤: ١٥).

يعرف قرّاء العهد الجديد أنّ هذه العبارة (إن شاء الله)، أو مضمونها، وردت فيه مرارًا. نقرأ: «سأعود إليكم مرّةً أخرى إن شاء الله» (أعمال الرسل ١٨: ٢١)؛ «وأسأل، دائمًا، في صلواتي، أن يتيسّر لي يومًا ما الذهاب إليكم، إن شاء الله» (رومية ١: ١٠)؛ «ولكنّي سأقدم قريبًا، إن شاء الربّ» (١كورنثوس ٤: ١٩، ١٦: ٧؛ فيلبّي ٢: ١٩- ٢٤)؛ «وهذا ما نفعل بإذن الله» (عبرانيّين ٦: ٣). وهذا يدلّ على أنّ المسيحيّين الأوائل وعوا أنّهم يحيون لله وبه، وأنّهم يرجون منه كلّ شيء، حتّى الأمور التي ترضيه.

إذا قرأنا الآيات التي أتى قول يعقوب ضمنها، نلاحظ أنّ الرسول أراد أن يؤنّب قرّاءه على ما وصل إليه من أخبار عن بعض المؤمنين التجّار الذين أهملوا الافتخار بإيمانهم (يعقوب ١: ٩ و١٠)، وأخذوا يتباهون بقدرتهم الذاتيّة. وهذا ما جعله يلومهم على قولهم «سنذهب اليوم أو غدًا إلى هذه المدينة أو تلك نقيم فيها سنةً نتاجر ونربح» (٤: ١٣)، وينذرهم

قائلاً: «أنتم لا تعلمون ما تكون حياتكم غدًا، فإنّكم بخار يظهر قليلاً ثمّ يزول» (٤: ١٤). فالإنسان لا يضمن حياته. وشأنه أن يضع رجاءه على الله الذي بيده، وحده، الزمان بحاضره ومستقبله. وهذا الرجاء هو الذي يحدّد للإنسان ماذا عليه أن يقول ويفعل. غير هذا «مباهاة منكرة» لا تليق بِمَنْ أراد الربّ منهم أن يتّصفوا بوداعته وتواضعه (متّى ١١: ٢٩)، وأن «يصنعوا الخير، لئلاّ يرتكبوا خطيئة» (٤: ١٥).

لن نسترسل في الكلام على الغنى ومخاطره. فقول الرسول ينفع المؤمنين جميعًا، مهما كان وضعهم أو إمكاناتهم. ولكون كلّ قول مُنَجٍّ قد يتعرّض لخطر تشويهه، نرى، لزامًا، أنّ واجبنا الأوّل أن نبدّد كلّ ما يمكن أن يسبّب تحريفًا لقول يعقوب، حتّى لا تفوتنا الفائدة التي يحملها.

ما من شكّ في أنّ الرسول، الذي أراد من قرّائه أن يعوا أنّهم يحيون برعاية الله، لم يقصد أن يقول لهم لا تتّخذوا مهنةً في الأرض، أو تجنّبوا كلّ خططكم ومشاريعكم. فالانتماء إلى المسيح لا يقبل استقالةً في الدنيا، ولا يرتضي أيّ بطالة وخلل (أنظر: أعمال الرسل ٢٠: ٣٣- ٣٥؛ ١كورنثوس ٤: ١٢؛ ١تسالونيكي ٢: ٩، ٤: ١١؛ ٢تسالونيكي ٣: ٦- ١٢). لكنّ مراده، إذا عملوا أو خطّطوا، ألاّ يتجاهلوا الله، ويشعروا بأنّهم قادرون، بقدرتهم الذاتيّة، على أن يأمنوا العالم وشروره. فالربّ وضع قاعدة حياة الإنسان، بقوله : «لا يهمّكم أمر الغد، فالغد يهتمّ بنفسه. ولكلّ يوم من العناء ما يكفيه» (متّى ٦: ٣٤). ومعنى قوله، في سياقه، لا يمنع الإنسان، أيضًا، من العمل، أو من التفكير في مشاريع مستقبليّة تخصّه، بل

يحضّه على أن يتّكل على الله في كلّ شيء، أي أن يعود إليه في كلّ أمر، ولا يكون له همٌّ في الحياة الدنيا. وهذا ما أكّده الرسول بطرس، بقوله: «ألقوا عليه (على الله) جميع همّكم، فإنّه يُعنى بكم» (الرسالة الأولى ٥: ٧).

لا يفوت المؤمنين أنّ الدنيا زائلة. وظنّ الخلود، في الأرض، نوع من أنواع الغباء. وتجاهل الله غباء أيضًا. فالله، وحده، هو الحيّ الباقي. والمؤمن الحقيقيّ هو الذي يبني حياته عليه، ليشاركه في حياته (١يوحنّا ١: ١- ٣)، أي هو الذي يعي مشيئته، ويعترف بها قَبْلَ أيّ أمر. هذا هو مشروع الإنسان الأوّل الذي ينحدر منه كلّ مشروع آخر. وَمَنْ وعى مشيئة الله، أخضع مشيئته الذاتيّة له ولعنايته. الله هو، وحده، القادر على أن يساعد المفتخرين به، وينقذهم من كلّ اكتفاء بالنفس مميت. لأنّه هو الذي أوجد الناس، والذي خلّصهم، والذي يرعاهم برحمته دائمًا.

هذا موقف إيمانيّ لا يقبل جدلاً. فالمؤمن لا يلهيه عن الله شيء، ولا سيّما إذا أصاب نجاحًا في الأرض. ألم يوبّخ الربّ، في مثل «الغنيّ الجاهل»، الذين كانوا يعتقدون أنّ حياتهم تأتيهم من أموالهم (لوقا ١٢: ١٣- ٢١)؟ وهذا التوبيخ لنا إن حذونا حذو المعتقدين بمثل هذا الاعتقاد. فإن كنّا مؤمنين بالربّ حقًّا، نسلّم له حياتنا، أي نستلمها منه. والإيمان، الذي هو شأن القلب، يظهر على لسان الإنسان إذا تكلّم، وفي تصرّفاته إذا تصرّف. طبعًا، قد يركب الإنسان ركب المتكلّمين بإيمان من دون أن يعني ما يقوله، أو يفهمه. ما يريده الرسول يعقوب أن نعني ما نقوله إذا تكلّمنا، أي أن نتكلّم بوعي يدلّ على صدق مكنونات قلوبنا. وذلك حتّى

ننقذ أنفسنا، ونساهم في إنقاذ الذين نحيا وإيّاهم. فالمجتمع، الذي نعيش فيه، يحتاج، أكثر ما يحتاج، إلى مَنْ يذكّر ناسه بحقّ الله، لكيلا يغرقوا في ذواتهم، أو يظنّوا أنّ حياتهم منهم.

مِنْ واجبنا أن نعرف المسلّمات المنجّية، حتّى لا نردّد أقوالاً نظنّها من العالم، وحتّى نحسن الارتباط بالله الذي كشف ما يرضيه، لنطيعه، ونحيا.

«فليعترف بعضكم لبعض بخطاياه»

أوصى الرسول يعقوب هذه الوصيّة، في آخر رسالته الجامعة (٥: ١٦)، وذلك في معرض توصيات عديدة، محورها الصلاة ومسحة المرضى ومغفرة الخطايا.

لن نتبسّط في الكلام على التوبة والاعتراف سرًّا. فما يشغلنا، الآن، هو اعتراف المؤمنين بعضهم لبعض.

مِنْ الثابت أنّ الكنيسة الأولى عرفت الاعتراف بالخطايا الشهيرة (الزنى والقتل والجحود) أمام الجماعة كلّها بوجود الكهنة. وعرفت، تاليًا، في مطلع القرن الخامس، الاعتراف أمام الكهنة وحدهم. فإن كان الرسول يوحي بسرّيّة هذه الممارسة أو يهيّئ لها، يبقى قوله يحمل الدلالة على ضرورة الاعتراف بالخطايا أمام الإخوة، ولا سيّما مَن ارتكبنا الشرّ بحقّهم. والاعتراف، سرًّا، يفترض، في كلّ حال، أن يطلب الإخوة المغفرة بعضهم من بعض، أي يفترض تواضعًا كبيرًا، ومكاشفةً صادقةً، والسماح، وقبول إصلاح الآخرين في كلّ وقت.

ما من شكّ في أنّ الحياة المسيحيّة تقوم على التوبة الدائمة، أو الاستعداد الدائم لها. فالمؤمن لا يكون مستتيبًا إن لم يفتح قلبه لإرشاد الروح القدس الذي يقود الكنيسة، ويجدّد أعضاءها باستمرار. وإرشاد الروح لا يُحصَر بجلسات صادقة يكشف فيها المؤمنون عيوبهم أمام مَنْ أوكلوا إقامة الأسرار المقدّسة، وما تفترضه هذه المكاشفة من معاهدة الله

على الأمانة من جديد، والأمانة دائمًا. لكنّه، أيضًا، قد يأتينا في كلّ وقت، ومن كلّ الناس، ولا سيّما الذين تعنيهم قداسة الله، ويحيون بموجبها.

بعضنا يعتقد أنّه، إذا ارتكب خطأً ضدّ أحد الناس، يكفيه أن يندم أمام الله، ويحاسب نفسه على فعله السيّئ (وهذا مهمّ وواجب)، أو أن يفعل ذلك، ويذهب ويعترف أمام أبيه الروحيّ (وهذا، أيضًا، مهمّ وواجب). ولكنّنا نرى أنّ الرسول، إلى ذلك، يطلب أمرًا آخر، أي أن يعترف مرتكب الخطأ شخصيًّا لِمَنْ أخطأ إليه. وهذا يعني أن يَطلب غفرانه، وتاليًا أن يُقبل اعترافه، ويُعطى طلبه. إذ ليس من وعي كامل لعلاقتنا بالله لا يمرّ بعلاقة صحيحة مع الآخرين (أنظر: متّى ٥: ٢٣ و٢٤).

ليس الاعتراف للإخوة بالذنوب، التي ارتكبناها بحقّهم، هدفه أن ينكسر أحد أمام أحد. فالاعتراف قوّة. ونحن لا نستطيع أن نقترب من الله، اقترابًا حقيقيًّا، إن ارتكبنا السيّئات، أو كان في قلوبنا جفاء أو ضغينة. فهذه، أو تلك، ضعف في النفس يعطّل السلام وتقدّمنا في المحبّة. والله لا يرضى أن نحبّه، وقلوبنا ظالمة أو حاقدة، أو إذا كنّا لا نشعر بسيّئات الخطايا التي نرتكبها ضدّ الآخرين. الله يريدنا أن نوافق مشيئته، أي أن نعكسها في علاقتنا بالناس جميعًا. ومن مقتضيات هذا كلّه ألاّ نقبل أنفسنا خطأةً أو ظالمين. وَمَنْ يبنِ علاقته بالآخرين على قاعدة صحيحة، أي مَنْ كانت عنده الجرأة على أن يبوء بذنوبه التي ارتكبها بحقّهم أمامهم، يشترِ نفسه لله، ويساعد الآخرين على العودة إليه.

المؤمن الواعي يعرف أنّ الله يريده أن يكون دليل الآخرين إليه.

فمن الممكن أن نشتري الآخرين لله بأقوالنا، أو بتصرّفاتنا. ولذلك، إذا طلبنا المغفرة مِمَّنْ أخطأنا إليهم، لا نفعل ذلك، ليقولوا عنّا أقوالاً حسنة. هذا ليس قصدنا. قصدنا أن يرضى الله عنّا وعنهم، وأن يُرى هو في كلّ ما نقوله، ونعمله. فما يجب أن يشغلنا ليس أن نكون «أوادم» في رأينا، أو رأي غيرنا، بل أن نعود نحن، والذين معنا، إلى الله الجامع.

غير أنّ أمورًا عديدةً تدلّنا على أنّ هذا ليس مقبولاً حكمًا بالضرورة. فقد يحسب المؤمن، أحيانًا، أنّه أبرّ من غيره، ويأبى الاعتراف. وإذا ارتكب شرًّا ضدّ أحد، فقد يبرّر نفسه أنّ الآخر يستحقّ ما فعله معه، أو ليس هو المسبّب الأوّل للخطأ. وإذا بكّته ضميره، أو حضّه أحد إخوته الواعين على الاعتذار وطلب المغفرة، فقد يحسب أنّ تصرّفه لن يُفهم، كما أن يُتّهم، إذا اعترف، بالضعف أو الجبن، أو يُسخر به. هذا كلّه ممكن، ويصير. ولكنّ مَنْ يحيا لله، أو يرغب في تجديد حياته دائمًا، إذا زلّ، من واجبه ألاّ يخزن شرًّا في قلبه. عليه أن يبوح به، ليسترجع نقاءه. وإذا فعل، ولم يُفهم اعترافه، أو فسّر تصرّفه بطريقة مخالفة، لا يليق به أن يتذمّر، أو يندم، أو يدين. الإنسان المؤمن لا يعمل ما يرضي الله بشرط أن يُقبل تصرّفه. إنّه يعرف أنّ الله يطلب منه أن يعمل الخير، ولا يهمّه رأي الناس، أو ما يمكن أن يفكّروا فيه، ويقولوه، ولو أنّه ينتظر أن يفهموا دوافعه وأهدافه، لينقذوا أنفسهم. قصده أن يرضى عنه الله وحده. ففي الأخير، الله مَنْ يطلب، ويرى، ويدين سرائر الناس وظاهرهم.

الاعتراف بالخطايا للآخرين خير لنا ولهم إذا رمنا أن نكون

أعضاء حقيقيّين في كنيسة عانى ربّها معاناةً بالغةً، ليجمعها، ويوحّدها. ولنا أن نعانق صبر المسيح وحبّه البليغ، وأن نتقوّى به وبما يطلبه ويرضيه. فالله غفور. ويحلو له أن نبيّن كلّ تواضع ووداعة في علاقتنا بعضنا ببعض، أي أن نعترف بكلّ إساءة فعلناها، وأن ننتظر أن يُصفح عنّا «كما صفح الله عنّا في المسيح» (أفسس ٤: ٣٢، ٣: ١٣؛ كولوسّي ٣: ١٣). فهذا يبيّن أنّنا تلاميذه، وأنّنا نرجو رحمته، وأن يستقبلنا في ملكوته الذي لا يدخله إلاّ الذين سيطر عليهم ربّهم بحبّه وغفرانه.

الشريعة والأنبياء

لمّا دخل بولسُ رومية، أُذن له «أن يقيم في منزل خاصّ به مع الجنديّ الذي كان يحرسه» (أعمال الرسل ٢٨: ١٦). وبعد ثلاثة أيّام من حلوله في هذه المدينة، دعا إليه أعيان اليهود، واجتمع بهم، وأخبرهم عن سبب سجنه. فقالوا له إنّهم لم يسمعوا عنه سوءًا. وأخبروه بأنّهم يودّون أن يسمعوا رأيه عن «شيعة النصارى» التي «تقاوَم في كلّ مكان» (الآيات ٢٢- ٢٧). «ثمّ جعلوا له يومًا جاؤوا فيه إلى منزله وهم أكثر عددًا. فأخذ يعرض لهم الأمور، فيشهد لملكوت الله، ويحاول أن يقنعهم بشأن يسوع معتمدًا على شريعة موسى وكتب الأنبياء» (الآية الـ٢٣).

إذا عدنا إلى رسالته التي خصّ بها المؤمنين في رومية، يبدو لنا أنّ الرسول استند، في غير موضع، إلى الكتب القديمة، ليوضح أمورًا عدّةً تؤكّد صحّة شهادته. ويحلو لنا أن نذكر بعضها، ومنه: في فاتحة رسالته، تكلّم على: «البشارة التي سبق أن وعد الله بها على ألسنة أنبيائه في الكتب المقدّسة» (١: ٢)؛ واستفاد من مثل إبراهيم، ليظهر أهمّيّة الإيمان (٤: ١- ٢٥)؛ وبيّن، تاليًا، أنّ «غاية الشريعة هي المسيح لتبرير كلّ مؤمن. وقد كتب موسى في أحكام الشريعة: إنّ الإنسان، الذي يتمّمها، يحيا بها» (١٠: ٤ و٥؛ قابل مع: سفر الأحبار ١٨: ٥)؛ وقال أيضًا: «فإنّ كلّ ما كتب أيضًا، قَبْلاً، إنّما كتب لتعليمنا، حتّى نحصل على الرجاء، بفضل ما تأتينا به الكتب من الثبات والتشديد» (١٥: ٤). والواقع أنّ هذا غيض من فيض. فإنّ جلّ

هذه الرسالة يستند إلى الكتب القديمة التي هي ظلٌّ للآتي (عبرانيّين ١٠: ١). وما هذه المواقع، التي اخترناها، إلاّ مثل بسيط عن ذلك. وَمَنْ أراد الاستزادة، يمكنه أن يقرأ الرسالة عينها، والعهد الجديد بمجمله.

الاعتماد على شريعة موسى وكتب الأنبياء (أي العهد القديم)، للشهادة ليسوع، كان مستند بولس ومستند الكنيسة الأولى. وفي تتبّعنا التراث الجديد، نجد، مثلاً، أنّ الرسول اعتنى، ولا سيّما مع اليهود، أو المسيحيّين من أصل يهوديّ، بأن يكون العهد القديم قاعدةً من قواعد تبشيره بيسوع. فالعهد القديم كتاب الكنيسة، وهو، بمجمله، شهادة للربّ الآتي وعنه. الربّ هدفه. والكتابات الجديدة، التي تؤكّد ذلك، لا يهدف تأكيدها أن تقف على ما هو قديم، بل تبيان أنّ العهد القديم قيمته الحقيقيّة أنّه يشير إلى المسيح الفادي (راجع تأكيد الربّ القاطع أنّ الكتب القديمة شهدت له، في يوحنّا ٥: ٣٩ و٤٦). ولذلك لا قيمة، عندنا، لهذا العداء المفرط غير المبرّر الذي يعتمده بعضٌ ضدَّ كتب العهد القديم. ولا نجهل حججهم ودوافعهم. أن يرفض بعضٌ اليهودَ الصهاينة، ويدين أعمالهم وتعسّفهم في الأرض (وهذا واجب)، لا يشرّع له أن يضطهد تراثًا مقدّسًا عاد لا يخصّ الذين صلبوا هدفه. القاعدة، في قبول العهد القديم، هي ربّنا الهدف. فإذا كانت في الكتب القديمة دلائل على مجيء ابن الله إلى العالم وإتمامه تدبير أبيه، وهذا أكيد، فمعناها يكون انطلاقًا من الوعد الذي تحمله. المؤمن لا يأخذ أحكامًا مسبقةً ممّا لا يفهمه، أو يقرأه بصعوبة. فإذا كان «القارئ العصريّ» يأبى كلامًا، أو تصرّفًا، سجّل في العهد القديم، يفقد موضوعيّته إن رمى به،

لأنّ أحدًا قال له أن يفعل، أو أوحت إليه نفسه بذلك. هذا ليس موقفًا إيمانيًّا، ولا علميًّا. المؤمن الحقيقيّ يتحرّك بموجب تعامل الربّ ورسله مع التراث القديم، وتاليًا أبرار الكنيسة في غير جيل. الربّ قرأه، وفسّره. والكنيسة كذلك. وهذا لا توازيه قيمة. وأمّا الذين يقولون إنّ كتابنا هو العهد الجديد حصرًا، فلا قيمة لما يقولونه إذا كان قصدهم أنّ العهد القديم لا لزوم له. فإلى جانب ما أكّدنا، ثمّة، في العهد الجديد، ألفاظ وعبارات، لا يحصى عددها، يستحيل فهمها إن لم يُبحث عن معانيها في الكتب القديمة. منها مثلاً: مسيح، ابن داود، ابن الإنسان، العبد المتألّم، الفادي، الكرمة، الكنيسة، كنيسة الأبكار، ملكوت الله، قدّيسون، أبناء الله، كهنوت ملوكيّ، الذبيحة، وغيرها. ثمّة أمور لا يليق بنا أن نجادلها إن كنّا نفهم حقًّا، أو نريد أن نفهم، معنى هذا الإعداد الطويل الذي أعدّنا الربّ به قَبْلَ مجيئه.

بعد هذا الثابت، يجوز القول إنّ العهد الجديد تمّم القديم، وفي آنٍ تخطّاه. فالتتميم يفهم على ضوء الهدف الذي كشف نفسه حبًّا بنا. والتخطّي أنّنا وصلنا إلى «الكامل» (١كورنثوس ١٣: ١٠). فبعد مجيء المسيح وتتميمه تدبير أبيه، صار هو، عندنا، كتاب الله، أو «مخطوطاته» (أنظر: رسالة القدّيس إغناطيوس الأنطاكيّ إلى أهل فيلادلفيا ٨: ٢). كلّ قراءة للمكتوب صارت محكومةً به وبخلاصه. والإنسان العاقل لا يقول إنّ إله العهد القديم هو غير إله العهد الجديد. فهذه بدعة أدانتها الكنيسة قديمًا. ليس في العالم إلهان. هناك إله واحد عبّر عن نفسه بتدرّج. وإذا كانت المحبّة ختم الكشف، فهذا استنتاج حقيقيّ يعوزه ما قبله. الكتب

تربية. والتربية، التي ربّى الله العالم بها منذ بدء الخليقة، لا يلغيها شيء. فلا أحد في العالم كلّه، مهما بلغت قامته، يقدر على أن يدّعي أنّه فوق كشف الله الممدود في التاريخ. هل يرمي بالغ ما قاله له أبواه في صغره؟ أليس إرشادهما يبقى ذخيرةً في القلب الراضي دائمًا؟ إذا كان هذا حالنا مع أبوينا الأرضيّين، فكيف يجب أن يكون حالنا مع الله أبينا الذي لا أحد عاقلاً يدّعي أنّ أحدًا في الأرض له ثباته، أو يوازيه قداسة؟

كان بولس يعتمد على شريعة العهد القديم وكتب الأنبياء، ليقنع سامعيه بشأن يسوع. هذا سند لنا إذا رمنا الشهادة للحقيقة الواحدة. فنحن تلاميذ الربّ وكنيسته الحيّة، التي لم تتكلّم أو تتصرّف من ذاتها، بل بوحي الروح القدس الساكن فيها أبدًا.

إضافة الغرباء

ترد فضيلة «إضافة الغرباء» مرارًا في كتب العهد الجديد. فبطرس الرسول استضاف الرجال الثلاثة، الذين أرسلهم قرنيليوس قائد المائة ليدعوه إلى بيته، قَبْلَ أن يمضي معهم في اليوم التالي (أعمال الرسل ١٠: ٢٣)؛ وفي مالطة، رحّب حاكم الجزيرة ببليوس بالرسول بولس وصحبه، واستضافهم «ضيافة الصديق مدّة ثلاثة أيّام» (أعمال الرسل ٢٨: ٧)؛ وأوصى بولس المؤمنين في كنيسة رومية بأن يبادروا إلى «إضافة الغرباء» (١٢: ١٣)؛ وحمل إلى كنيسة رومية سلام غايوس «مضيفه ومضيف الكنيسة كلّها» (رومية ١٦: ٢٣)؛ وطلب من تلميذه تيموثاوس ألاّ تُكتب امرأة، في سجلّ الأرامل، إلاّ إذا شُهِدَ لها بالأعمال الصالحة، ومنها «إضافة الغرباء» (الرسالة الأولى ٥: ٩ و١٠)؛ وذكر يعقوب الرسول أنّ راحاب البغيّ تبرّرت «لأنّها أضافت الرسولين» (٢: ٢٥؛ قابل مع: يشوع ٢)؛ وأمر بطرس: «لِيُضِف بعضكم بعضًا من غير تذمّر» (الرسالة الأولى ٤: ٩؛ أنظر أيضًا: فيلمون ٢٢).

هذا، طبعًا، يذكّرنا بأمثلة عدّة دوّنها الإنجيليّون. منها: مثل «السامريّ الشفوق» (لوقا ١٠: ٣٠- ٣٥)، ومثل «صديق نصف الليل» (لوقا ١١: ٥- ٨). ويذكّرنا، تاليًا، بنصيحة أسداها يسوع لرجل قَبِلَ دعوتَهُ إلى مائدته، بقوله: «إذا صنعت غداءً أو عشاءً، فلا تدعُ أصدقاءك ولا إخوتك ولا أقرباءك ولا الجيران الأغنياء، لئلاّ يدعوك هم، فتنال المكافأة

على صنيعك. لكن، إذا أقمت مأدبةً، فادعُ الفقراء والكسحان والعرجان والعميان. فطوبى لك، إذ ذاك، لأنّهم ليس بإمكانهم أن يكافئوك، فتكافأ في قيامة الأبرار» (لوقا ١٤: ١٢). ويذكّرنا لا سيّما بمثل «الدينونة الأخيرة» الذي يؤكّد يسوع فيه أنّنا جائعًا نُطعمه، وعطشانَ نَسقيه، وغريبًا نأويه، وعريانًا نلبسه، ومريضًا نعوده، وسجينًا نزوره، كلّما فعلنا ذلك «بأحد إخوته الصغار» (متّى ٢٥: ٣٥- ٤٣).

أوضح تعليل لهذه الفضيلة (إلى جانب ما تتضمّنه المراجع المدوّنة أعلاه)، نجده في الرسالة إلى العبرانيّين، حيث نقرأ: «لا تنسوا الضيافة، فإنّها جعلت بعضًا يُضيفون الملائكة وهم لا يدرون» (١٣: ٢). ويبدو، كما هو مقبول عمومًا، أنّ الرسول استند، بقوله، إلى موقعٍ من موقعين. الأوّل ما جاء، في سفر التكوين، عن لقاء إبراهيم بالربِّ بصورة ثلاثة رجال (ملائكة)، واستضافته إيّاهم في منزله، وتاليًا عن استضافة لوط في سدوم اثنين منهم خلّصاه وأصهاره وبنيه وبناته وجميع مَنْ له في المدينة قَبْلَ إحراقها (أنظر: تكوين ١٨- ١٩؛ وأيضًا: رسالة اقليمس الأولى إلى كنيسة كورنثوس ١١: ١). والثاني ما نقرأه عن مرافقة الملاك رافائيل لطوبيّا إلى ميديا (طوبيّا ٥- ١٢).

كلّ هذا يعطي الضيافة معنى إلهيًّا يكاد يفقد في ظلّ معمعة ما يسمّى بالمدنيّة الحديثة (ولست بهذا أنتقد كلّ ما أتت به المدنيّة). فالناس، بمعظمهم، باتوا أفرادًا مبعثرين. أغرقتهم الدنيا، وبلعهم حوتُها. ما كان يُحكى عن العلاقات البريئة بين الناس، ولا سيّما في بلدنا، كاد الحاضر

يمحوه. أغلبهم تعوّد العلاقات الرسميّة والتمييز بين الوجوه. فمن النادر أن تجد، اليوم، أحدًا يقبل الفقراء الذين غُرِّبوا في الأرض، ولو كانوا من أخصّائه، أو يعاملهم معاملةً تليق بإيمانه. إنسان هذا الزمن يفضّل القادرين على معاملته بالمثل. المجّانيّة والبساطة تكادان تفتقدان في الأرض. وليست حال الناس أفضل مع أقربائهم وأصدقائهم. الكلّ يطلب علاقةً «حسب الأصول». تزورني، فأزورك. الضيافة، التي كان يتغنّى بها مجتمعنا وشعراؤه، شوَّهتها فرديّةٌ تعوّدناها، وباتت «حضارتنا» البديلة. ورغم كثرة البطالة، الكلّ مشغول. ليس عندنا وقت، لنبادر، ونزور أحدًا، أو لنتبرّك بدعوته واستضافته. وكثيرًا ما نفضّل ألاّ نعمل شيئًا، أو نتسمّر ساعات على شاشة التلفزيون. الزيارات مزعجة عمومًا، والاستضافة أكثر إزعاجًا. والأمور، إذا قصد زيارتنا قريب أو صديق من بلد بعيد، تأخذ منحى أكثر تعقيدًا. الناس، في العالم المسمّى متمدّنًا، أخذوا يستقبلون ضيوفهم، بعامّة، بعد أن يحجزوا لهم في أحد الفنادق. وهذا أخذ القادرون، عندنا، يتبنّونه. فالضيف، في المنزل، مزعج! طبعًا، قد نجد، لهذه العادة المستحدثة، تبريرًا إذا كان عدد الضيوف كبيرًا، ومنزلنا لا يسعهم. ولكنّها، بالتأكيد، تشوِّه حسن الضيافة، وما تفترضه من كرم وتقبّل للغير، إن كنّا قادرين على استيعابهم في بيتنا، ورضخنا لهذه العادة المستوردة.

إذا كان هذا هو الحال عمومًا، وكنّا نؤمن بقول الله الملزم، فكيف يمكننا أن نفهم، أو نقبل فضيلة الضيافة؟

لا شكّ في أنّ الضيافة صفة من صفات المؤمن. هذا، الذي لا يغيّره

جيل، تثبته النصوص التي أشرنا إليها أعلاه. والضيافة شأن القلب أوّلاً. القلوب، التي تمرّنت على المحبّة، تعطي الآخرين، أيًّا كانوا، مكانًا فيها. وإذا كان القلب معطى، فالمال والبيوت لا بدّ من أن تتبعه. وهذا معناه أنّنا، إذا آمنّا حقًّا بأنّ الناس «صورة الله»، نستضيفهم، لنسترضيه. أو نستضيفه هو، ونكرّمه بإكرامنا إيّاهم. القضيّة قضيّة إيمان، ولا تفهم الضيافة بعيدًا من الإيمان. وهذا معناه، أيضًا، أنّ الحياة تلاقٍ. وَمَنْ لاقى غيره ببشاشة وحسن استقبال وكرم، تكرّم بفعل ما فعل.

يبقى أنّ فضيلة الضيافة يستحقّ تحقيقها ألاّ ننتظر أن يأتينا أحد، أو يطلب زيارتنا فحسب، بل أن يكون لنا استعداد المضيف دائمًا. فالأفضل لنا كثيرًا أن نبادر نحن، وندعو الآخرين إلينا، حتّى نربح بركة استضافتهم. وإذا فعلنا، ويجب أن نفعل، علينا ألاّ نميّز بفرحنا بالناس بين وجه ووجه. فتعليمنا يطلب «إضافة الغرباء». وليس من أحد غريبًا عند الذين يرجون أن يستضيفهم ربّهم في ربوع ملكوته الأخير.

السبيل إلى الله

يعتني الرسول بطرس (أو أحد تلاميذه)، بأن يعبّد لنا السبيل إلى الله، بقوله: «ابذلوا غاية جهدكم، لتُضيفوا الفضيلة إلى إيمانكم، والمعرفة إلى الفضيلة، والعفاف إلى المعرفة، والثبات إلى العفاف، والتقوى إلى الثبات، والإخاء إلى التقوى، والمحبّة إلى الإخاء» (الرسالة الثانية ١: ٥-٧). ويعنينا، هنا، أن نتأمّل في هذا القول.

مَنْ يقرأ رسالة بطرس الثانية بمجملها، يعرف أنّها تنتمي إلى فنّ الوصيّة. فالرسول، الذي ينتظر أن يحقّق الربّ ما أعلمه به في شأن انتقاله من هذه الحياة الدنيا (١: ١٤)، يقلقه بعض المشوَّهات التي تبدو هنا وهناك. ويريد أن يثبت المؤمنون في الحقّ وقداسة السيرة، حتّى يدخلوا «ملكوت ربّنا ومخلّصنا يسوع المسيح» (١: ١١)، الملكوت الذي لا يدخله إلاّ الثابتون والذين يستعجلون مجيئه (٣: ١٢).

لن نقف عند ألوان الضلال التي تحذّرنا منها الرسالة. فما يأخذنا، الآن، هو هذه الفضائل المذكورة التي يشعرنا ترابطها بأنّ الإنسان لا يكمل إلاّ إذا اعتنقها كلّها.

يبدأ الرسول قوله بحثّ قرّائه على بذل كلّ جهد. ويحلو لنا أن نعتبر هذا الحثّ مدخلاً لما يتبعه. فكلّ فضيلة يفترض تحقيقها جهدًا. فإذا كان صحيحًا أنّ الله هو الذي ينعم علينا بفضائله، فالصحيح، أيضًا، أنّه ينتظر أن نجتهد في قبولها بإرادة حرّة.

أوّل جهد يطلبه الرسول من قرّائه أن «يضيفوا الفضيلة إلى إيمانهم». وهذا يعني أنّ الإيمان الحقيقيّ هو الذي يهيّئ الإنسان لتقبّل كلّ فضيلة. فليس الإيمان أن نعتقد بوجود الله فحسب. لكنّه، أيضًا، أن نعي أنّ كلّ ما أراده الله منّا يؤكّد عملُنا به إيمانَنا، وينمّيه. والإيمان مسيرة. وَمَنْ سار مع الله، يتعلَّم، كلّ يوم، أمورًا جديدةً تقدّسه. يتوب عن جهله ومخالفاته، ويجدّد نفسه بالطاعة. والفضيلة زينة المؤمنين الذين يجاهدون في الأرض. إذ ليس من جهاد حقيقيّ إن لم نبتعد عن كلّ رذيلة، ونطلب الأمور «التي من العلى». وَمَن ابتغى الفضيلة، وَدَّ المعرفة. لماذا المعرفة بعد الإيمان والفضيلة؟ ليس بمعنى أنّها أعلى منهما. فغاية المعرفة أن نبتغي، مؤمنين، الفضيلة بجدّيّة ظاهرة. هذا أوّل معانيها وأغلاها. لكنّ المعرفة، لا سيّما معرفة الكلمة الإلهيّة، قيمتها الكبرى أنّها تكشف لنا وجه الله الحقيقيّ، وأنّها تساعدنا، تاليًا، على التمييز بين الصحيح والخطأ. فثمّة تعاليم كثيرة تشوِّه الإيمان (٢بطرس ٣: ١٥ و١٦). وَمَنْ كان مؤمنًا فاضلاً، تبقى دعوتُهُ أن يجتهد في سبيل المعرفة، ليحمي نفسه من شرّ التعاليم المفسدة، حتّى لا يهلك. وهذه تعطيه، عارفًا، أن يدافع، أيضًا، عن المؤمنين الذين يتهوّرون بإصغائهم إلى المحرِّفين «الذين لا علم لهم ولا ثبات».

بعد المعرفة العفاف. والعفاف سند لما قبله، لأنّه يؤكّد ابتغاء الفضيلة بفهم. فَمَنْ عفّ، أي امتنع عمّا لا يحلّ، دلّ على إيمانه بسيادة الله. والعفاف، وسيلةً، هدفه أن نغتني بمعرفة الله التي تنفعنا، وتنفع مَنْ نحيا وإيّاهم في شركة طيّبة. فالله يريدنا عفيفين، حتّى ننقذ أنفسنا، ونقدر

على الشهادة الصحيحة. وهذا يحبونا عن كلّ استرخاء. فَمَن استرخى، أو استسهل الشرّ، مهما كان بليغًا، تقبح شهادته. ويضاف إلى العفاف الثبات، أي الصبر. وذلك بأنّ المؤمن لا يكون مجاهدًا إلاّ إذا صبر، وثبت في الحقّ. والصبر يحمل، في معناه، كلّ جرأة وشجاعة يعوزهما المؤمن في مسيرة جهاده. وهو اقتناء للنفس (لوقا ٢١: ١٩)، وباب للإثمار (لوقا ٨: ١٥). وَمَنْ صبر، تشبّه بالمسيح (٢تسالونيكي ٣: ٥؛ رؤيا يوحنّا ١: ٩)، وملك معه (٢تيموثاوس ٢: ١٢؛ وأيضًا: متّى ١٠: ٢٢؛ عبرانيّين ١٠: ٣٦).

تأتي التقوى مضافةً إلى الثبات. والتقوى، في الأدب المسيحيّ، يرتبط معناها بالإيمان والطاعة وعمل الرحمة. ولذلك رأى بعضٌ أنّها تعادل ما يسمّيه بولس «الحياة في المسيح» (رومية ٨: ٢). ولقد اعتنى الرسول بأن يذكرها، في هذه الرسالة، أربع مرّات (١: ٣ و٦ و٧، ٣: ١١). وهذا، لا سيّما في أزمنة المحنة، يبيّن أهمّيّة هذه الفضيلة الحامية والمقوّية (٢تيموثاوس ٣: ١٢). وفي الواقع، لا نرى، في المواضع التي ذكر فيها الرسول هذه الفضيلة في رسالته عينها، تخوّفًا من المظهرة (أنظر: ٢تيموثاوس ٣: ١-٥). لكنّ هذا لا يمنع من التذكير بخطر المظهرة، لما فيها من إنكار لقوّة التقوى. فظاهر التقوى صالح. ولكنّه يغدو بلا قيمة إن كان «من دون أصول» (المغبوط أغسطينوس). فَمَن اجتهد في أيّ فضيلة، إذا ادّعى التقوى أو راءى، لا قيمة لجهاده. التقوى الصحيحة تفترض إيمانًا حقيقيًّا بالربّ المنعم والداعم كلّ إرادة بارّة.

الفضيلة، التي تضاف إلى التقوى، هي الإخاء، أو المودّة الأخويّة.

ولا نأتي بجديد إن قلنا إنّ المودّة الأخويّة هي وجه آخر لمحبّتنا لله. فَمَنْ يحبّ الله أبا الجميع، يعترف بأنّ الناس جميعًا إخوته، ويحبّهم من دون تمييز، ويلتصق لا سيّما بأعضاء كنيسته، ويؤمن، كما يقول القدّيس باسيليوس الكبير، بأنّهم «معًا يكملون جسد المسيح في وحدة الروح. ويقدّمون بعضهم لبعض المساعدة التي يحتاجون إليها والتي تأتي من المواهب».

يختم الرسول هذه القائمة بالمحبّة. والمحبّة، في جوهرها، هي «أصل الفضائل كلّها ومصدرها وأمّها»، كما نوّرنا القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم. ولا نفهم هذا الختم، فهمًا صحيحًا، إن لم نذكر أنّ الرسول ابتدأ الفضائل بالإيمان. وهذا يعني أنّ حدود الفضائل كلّها الإيمانُ والمحبّةُ اللذان هما «بدء الحياة ومنتهاها» (أنظر: رسالة القدّيس إغناطيوس إلى كنيسة أفسس ١٤ : ١)، أي هما هدف الحياة المسيحيّة برمّتها.

هذا كلّه سبيلنا إلى الله «الذي دعانا بمجده وقوّته» (١ : ٣). فالفضائلُ اللهُ يحقّقُها فينا إن كنّا راغبين فيه، أي إن فضّلناه على الدنيا وما فيها، ووثقنا بأنّه منحنا مواعيده الثمينة والعظيمة، «لنصير بها شركاء الطبيعة الإلهيّة» (١ : ٤).

«افرحوا مع الفرحين وابكوا مع الباكين»

تقتضي الحياة المسيحيّة أن يلتزم المؤمنون الله، ويلتزموا بعضهم بعضًا في كلّ وضع. وهذا الالتزام، في شقّيه، التزام واحد لا يقبل تفضيلاً، أو انتقاصًا.

ما يلفت في الحياة المسيحيّة، (وما يمكن أن يصدم أحيانًا!)، أنّ الربّ الذي «كلّ شيء منه وبه وإليه» (رومية ١١: ٣٦)، شاء أن يتبيّن صدق حبّنا له عبر علاقتنا بعضنا ببعض. هذا من أوجه تنازله. وهذا، أيضًا، تجاوب مع إخلائه نفسه حبًّا بالعالم. فَمَنْ أتى إلى الله نزيلاً، أَلِفَهُ مع الذين يلتفّون حوله. ولا يصدق نزوله إن لم يقبل الذين حول الله، ويكرّمهم كما الله يكرّمهم. فالكرامة هي للجامع إذا قبلنا قربه، أو قربى خلاّنه.

على هذا الأساس المبهج والمحيّر العقول، طلب الرسول بولس من المؤمنين في رومية، قائلاً: «افرحوا مع الفرحين، وابكوا مع الباكين» (١٢: ١٥). وهذا القول، في سياقه، أساس من أسس الحياة الجديدة التي أرادها الله دعمًا لوحدة كنيسته.

ليس هذا الطلب، بالطبع، محصورًا بأعضاء الكنيسة الواحدة، ولو أنّه يلزمهم. فالله كرّم الإنسان بقبوله أن يتّخذ ابنه «صورة العبد» (فيلبّي ٢: ٧). وهذا معناه أنّه كرّم كلّ إنسان في هذا الوجود، مهما كان دينه، أو مذهبه، أو لونه، أو جنسه. ولذلك لا يمنع المسيحيّ نفسه من أن يفرح بفرح

الناس جميعًا، ولا يمنعها من أن يبكي لبكائهم.

سنترك التوسّع، على قدر ما يسمح الترك، ونحصر أنفسنا بالكلام على المسيحيّين الذين يجمعهم إيمانهم بالله الذي يخطب ودّهم، في خدمة الأبد، بكلمته الحيّة، ويوحّدهم بدم ابنه الوحيد، وينمّيهم بنعم روحه القدّوس. وهذا، في الواقع، هو هدف كلام الرسول المسطّر في رأس هذه السطور.

عندنا، في هذا الطلب، لفظتان لوضعين متناقضين: الفرح والبكاء. وهذان الوضعان يختصران أوجه حياة كلّ إنسان مؤمن (وكلّ إنسان في العالم أيضًا). فالمؤمن يفرح بالربّ وبالمؤمنين أترابه، ويريد لهم أن يعتنقوا الحقّ، أو هذا ما يجب. ويفرح بأهله وبعائلته وأولاده، وبتحقيق ما يرغب فيه له ولهم من خيرٍ راضٍ. ويفرح بمحبّة الإخوة له. ويفرح لكلّ إنسان، في هذا الوجود، يناضل في سبيل إنسانيّة حرّة. وينتظر أن يفرحه الربّ في يومه الأخير. والمؤمن يبكي، أو يحزن، إذا سقط في زلّة، أو سقط غيره من أعضاء الكنيسة. ويحزن إذا ضاقت به الأيّام، أو عظمت صعابها عليه. ويحزن إذا مرض هو، أو أحد أخصّائه، أو صدمته صدمة. ويبكي إذا ترك مَنْ عايشه الدنيا. ويبكي مع كلّ وجع، أو ظلم، في الأرض. وقد يفرح، أو يبكي، لأمور أخرى كثيرة. طلب بولس من المؤمنين أن يبيّنوا صدق حبّهم لإخوتهم، ويشاركوهم في ما ينتابهم فرحًا كان أو بكاءً. ولا يعني هذا أن يتطفّل المؤمن على غيره. ولا يعني أن يتدخّل في أمور لا تعنيه. ما يطلبه الرسول، لا يفهمه إلاّ المؤمنون الذين يقبلون شركة الحياة مع الله، ويعنيهم

بناء إخوتهم بالربّ دائمًا. فهذه الشركة فعلٌ في سبيل ربح الله والإخوة. ألم يقل الرسول في حديثه عن تنوّع المواهب ووحدتها: «فإذا تألّم عضو، تألّمت معه سائر الأعضاء. وإذا أكرم عضو، سرّت معه سائر الأعضاء» (١كورنثوس ١٢: ٢٦)؟

هذا الطلب لا يمكن أن يتحقّق من دون قربى. الشركة قربى. الإنسان، عادةً، أو عمومًا، يفرح لفرح أقربائه في الجسد، ويبكي لبكائهم. ويريد الرسول أن يعامل المسيحيّون بعضهم بعضًا على أنّهم أقرباء، أي عائلة الله الواحدة. فالمسيح قرّبهم وآخاهم، أي فداهم من كلّ بعد وانعزال وغربة. وهذه القربى انفتاح لا يليق بجماعة مؤمنة أن تتخطّاه، أو تتجاوزه، إذا أرادت أن تخصّ الله حقًّا، أي إذا أرادت أن تكسر كلّ انغلاق وتحجّر ولامبالاة، وتحيا ببرّ لا يقوله العالم، أو ينشئه.

ثمّ إنّ الشركة تساند. فشأن المؤمنين أن يدعموا بعضهم بعضًا في كلّ أمر يرضى عنه ربّهم، أو هذا ما يليق بمقتضى وعيهم. فإذا فرح مؤمن، يواكبه أخوه (أو إخوته جميعًا)، حتّى يثبت فرحه. وهذا يعني أنّه يريده أن يفرح بالربّ أوّلاً، وبكلّ أمر يؤكّد رضاه، وأنّه يدعمه في فرحه (فيلبّي ٢: ١٨)، وفي «تقدّمه وما يناله من النعم» (أنظر: السلّم إلى الله ٤: ٤٧)، وأنّه يرجو له، أيضًا، الفرح الأخير الذي يمنّ به الله على الذين أخلصوا له الودّ في حياتهم (متّى ٢٥: ٢١ و٢٣). وإذا بكى، يلازمه، حتّى لا يتحوّل بكاؤه إلى مرارة. ومعنى هذا أنّه يساعده في حزنه، ليعود إلى فرحه سريعًا. والفرح الحقيقيّ أن يذكر الإنسان ربّه، ولا ينساه البتّة. فثمّة مَنْ ينسى الله إذا أصاب

فرحًا في الدنيا، وثمّة مَنْ لا يذكره إلاّ إذا «عضّته الحاجة» (الرسالة المنسوبة إلى برنابا ١٠ : ٣). فالفرح لا يخلو من خطر. ولذلك شركة المؤمنين من أهدافها أنّها تواكب الثابت، وتنقّح الطارئ، وتصحّحه، وتساهم في إبعاد الخطر. والبكاء، أيضًا، لا يخلو من خطر. وخطره أفصح إذا بكى إنسانٌ على معصية تراوده، أو شرّ ارتكبه، ولم يجد حوله مَنْ يؤاسيه، ويسنده، ويذكّره بأنّ الله أقوى من كلّ خطيئة، وبأنّه القادر على أن يجدّده، ويحميه دائمًا. ولذلك كانت الشركةُ نجاةً للذين يحسنون الشركة.

الفرح والبكاء مشاركة، كيلا يفوّت المؤمن قربه من إخوته، ويحيا وحيدًا، أي كيلا يهمل التزامه، ويفصل نفسه عن الله الذي ارتضى أن نلاقيه في وجوه الإخوة وقربهم.

«سالموا جميع الناس إن أمكن»

الكلام على السلام قاعدته، في المسيحيّة، أنّ الله صالح العالم، أو سالمه، بموت ابنه على الصليب. فالسلام جاءنا، مجّانًا، بالمسيح «سلامنا» (أفسس ٢: ١٤)، أي جاءنا بفضل محبّته الغنيّة التي لا تنظر إلى استحقاق بشر (رومية ٥: ١٠ و١١). فبعد أن كنّا بعيدين وخطأةً وفجّارًا، صار المسيح «خطيئةً من أجلنا»، ليقرّبنا من الله أبيه، ويمحو عنّا كلّ إثم وخطيئة، و«نصير فيه برّ الله» (٢كورنثوس ٥: ٢١).

أجل، إنّنا بالمسيح مسالمون. وهذه المسالمة أرادها الله لنا هبةً، لنحيا بنهج بركاتها، ونعمل كلّ ما يرضيه. وما يرضي الله ألاّ تكون علاقتنا به حسنةً فحسب، بل أن تكون حسنةً معه ومع الناس جميعًا في آن واحد. فمن أسس المسالمة أن يتمثّل المؤمن، الذي ارتضى سلام الله، بالمسيح إلهه. إذ ليس من باب التطاول أن نعرف أنّ الربّ أوصانا بأن نعكس، في أقوالنا وتصرّفاتنا، ما عمله، ويعمله لنا (لوقا ٦: ٣٦). هذا من الوصايا المطلوبة والممكنة، إذا قبلنا نعمة الله، وثمّرناها بمحبّتنا وطاعتنا.

قد يقبل المسيحيّ، بسهولة، سلام الله، أي محبّته وغفرانه. ولكنّ الشائع أنّه يستصعب عكسه على علاقته بالناس. وهذا يدلّ عليه أنّ الكثيرين، مِمَّنْ يؤمّون الكنائس للصلاة والتقرّب من الله، يتصرّفون، في الدنيا، في أحيان كثيرة، كما يتصرّف الذين لا تعنيهم مقتضيات برّ الله. فتراهم يكيدون، ويحقدون، ويعادون، ولا يعاملون الذين يعادونهم

باللين، أو يباركون الذين يسيئون إليهم، كما فعل المسيح وأوصى (متّى ٥: ٤٤؛ لوقا ٦: ٢٧ و٢٨). والمسيحيّ، إذا جافى أو أهمل أو عادى، من حيث يدري أو لا يدري، لا يسيء إلى نفسه وغيره فحسب، بل إلى المسيح إلهه أوّلاً. وقد يفتح، بتصرّفاته المعيبة، كوّةً في قلبه للشرير، فيغدو مكانًا رحبًا له. والشرّير أحبّ إلى قلبه قهر المسيحيّين، أو تطويعهم، ليسيء إليهم وإلى إلههم (رومية ٢: ٢٤).

هذا يجعلنا نتذكّر قول الرسول: «سالموا جميع الناس إن أمكن» (رومية ١٢: ١٨). وهذا القول يدعونا إلى أن نوافق سلام الله، أي يحضّنا على أن نكون في سلام مع جميع الناس. عبارة «إن أمكن» لا تفترض أيّ استثناء. ولذلك لا يمكننا أن نركّز عليها، ونهمل ما قبلها. فبولس يطلب أن نسالم جميع الناس، من دون أن يخفي الإشارة إلى صعوبة هذا الطلب أحيانًا. فقد يُرفض سلامنا، ولذا أضاف «إن أمكن». وهذه الإضافة تؤكّد ما قبلها، ولا تخفّفه، أو تنسخه. ومعناها أنّ المسيحيّ، الذي دعوته أن يحاول أن يسالم جميع الناس دائمًا، يجب أن يدرك، دائمًا، أنّ من حقّ الناس أن يقبلوا سلامه، أو أن يرفضوه. ولا يمكن أن تعني أنّه يمكننا، إذا رفض الناس سلامنا، أن نرفضهم نحن، ونعاديهم. والأمر البديهيّ، الذي يفترضه هذا الطلب، أنّه يحثّنا على أن نكون، أوّلاً، في سلام مع الذين نحيا وإيّاهم في بيت واحد، أو عمارة واحدة، أو منطقة واحدة، أو رعيّة واحدة، أو في العمل، أو في المدرسة والجامعة، أي أن نكون في سلام مع إخوتنا وأبناء الوطن جميعًا والعالم كلّه. فالسلام خدمة، أو تكليف الإنسان الذي آمن

بسلام الله.

ربّ قارئ يقول إنّ في هذا الكلام مبالغةً غير واقعيّة، لأنّه لا يأخذ في الاعتبار أتعاب الحياة اليوميّة وما فيها من خصومات وعداءات. لقد أوحينا أنّ بولس، لمّا أضاف إلى قوله عبارة «إن أمكن»، لم يخفِ صعوبة ما طلب. لكن، هل يمكننا أن نخالف معنى قول مَنْ يعرف أحوال الدنيا وأهلها، فنبرّر كلّ خصومة ومعاداة؟ أليس في قوله رجاء أن يكون المسيحيّون مختلفين عَمَّنْ يتخبّطون بشرور الأرض، وأن تكون لهم خصوصيّة الإيمان بما نطقه الله وأراده؟ أليس من الممكن، إذا خفّفنا جدّيّة هذا الطلب، أن نفقد جدّيّتنا كلّها، ويصبح التبرير عندنا عادةً سهلةً، كما أن نقول «صعب»، وأحيانًا «مستحيل»، ما يجعل المسيحيّةَ فارغةً، وحقَّها محصورًا بقدرتنا الذاتيّة؟ لا بدّ من قدرة نقدّمها في سياق طاعتنا كلمة الله. هذا أمر لا يناقشه عاقل. غير أنّ المسيحيّ الحقّ لا يتّكل على نفسه فحسب، بل على نعمة الربّ أوّلاً. فالنعمة، إذا تنزّلت علينا وقبلنا بركاتها، تسهّل علينا طاعة الله، وتمنعنا من كلّ تبرير. وليس هذا فقط، بل تصبح المسالمة نهجنا ومشروعنا أيضًا. وإذا أتانا العداء من الآخرين، أيًّا كانوا، نعرف، في أعماقنا، أنّ الذين يتربّصون بنا، أو يعادوننا، مرضى يحتاجون إلى معالجة. ولا يشفي المريضُ المريضَ. لكنّ الذين أحبّوا الله، بصدق، يقيمهم ربّهم أطبّاء في العالم. فالله يريدنا أن نقبل كلامه دائمًا، ونتّكل عليه في غير وضع، لئلاّ يحكمنا لحمنا ودمنا، فنفقد فرادتنا وما يدعونا إليه في عالم لا ينقذه من عثراته ومشوَّهاته إلاّ سلام الله وشهوده.

لا يليق بأحد أن ينتسب إلى المسيحيّة، ويستصعب حقّها. فالمسيحيّون فرادتهم جدّيّتهم وإيمانهم بأنّ الله يريدهم أن يحيوا في بركات طاعته. ومن مقتضيات الطاعة الممكنة أن «نسالم جميع الناس»، قريبين كانوا أو بعيدين، كما سالمنا الله بالمسيح، لنقول، في كلّ زمان ومكان، إنّ للسماء مشيئةً صالحةً، وهي قائمة في الذين صالحهم الله، وأعطاهم أن يساهموا في «خدمة المصالحة» (٢كورنثوس ٥: ١٨).

التقشّف

المسيحيّة مذهب يأبى كلّ تنعّم زائل، أو كلّ انغماس في الأرض وملذّاتها.

مِنَ المواقع المعبّرة التي يدعو فيها الرسول إلى التقشّف، قوله إلى تلميذه: «أمّا أنت، فكن متقشّفًا في كلّ أمر. وتحمّل المشقّات، واعمل عمل المبشّر، وقم بخدمتك خير قيام» (٢تيموثاوس ٤: ٥). هذا قاله بعد أن ناشده، «في حضرة الله والمسيح الذي سيدين الأحياء والأموات»، ناشده «ظهورَهُ وملكوتَهُ»، «أن أعلن كلمة الله، وألحّ فيها بوقتها وغير وقتها، ووبّخ، وأنذر، والزم الصبر والتعليم. فسيأتي وقت لا يحتمل فيه الناس التعليم السليم، بل يكدّسون المعلّمين لأنفسهم وفق شهواتهم لما فيهم من حِكّةٍ في آذانهم، فيحوّلون سمعهم عن الحقّ، وعلى الخرافات يُقبلون» (٤: ١ - ٤).

ما يبيّنه هذا القول ودافعه أنّ التقشّف ليس هدفًا بحدّ ذاته، بل هو وسيلة من وسائل وعي تكليف الله. فالرسول، الذي حثّ تلميذه على عدم محبّة التنعّم الزائل، إنّما فعل ذلك، لئلاّ يتلهّى بملذّات هذه الدنيا، ويمتنع عن أن يعلن كلمة الله، بإلحاح، دائمًا. وذلك بأنّ مَنْ يصرف حياته وأشواقه، في محبّة الأرض، يفقد كلّ جدّيّة ويقظة يفترضهما حبُّ اللهِ ومعرفةُ كلمتهِ وَنَقْلِها.

لا، لا تخصّ هذه الوصيّة، حصرًا، المسؤولين في كنيسة الله

الذين كُلِّفوا أن «يفصّلوا كلمة الحقّ على وجه مستقيم» (٢تيموثاوس ٢: ١٥)، بل جميع الذين آمنوا بيسوع ربًّا ومخلّصًا. فالمسيحيّة ليست فيها وصايا ملزمة لقسم من المؤمنين من دون غيرهم. الله، الذي قسم لكلّ مؤمن موهبته «للخير العامّ»، يريد الجميع على وعي واحد وجهد واحد وإخلاص واحد.

خوف بولس من كلّ لهوة أن يضيّع المؤمنون حياتهم عبثًا. وخوفه، بالأخصّ، من أن «يأتي وقت لا يتحمّل الناس التعليم السليم»، وينتقلوا من معلّم إلى آخر، «ويحوّلوا سمعهم عن الحقّ». فالذي يضبط الناس، ويساعدهم على اعتناق كلمة الله، وتاليًا يحميهم من شرّ الذين «يقاومون الحقّ»، ويبعد عنهم كلّ سقوط أو «إقبال على الخرافات»، هو الذي، بتقشّف، يسهر على حفظِ الكلمةِ وَنَقْلِها. وهذا كلّه يعني أنّ المؤمن لا يدفع الشرّ عن نفسِهِ وغيرِهِ بالجهل والغيرة الفارغة، بل بمعرفة الكلمة. ومن مقتضياتِ معرفةِ الكلمةِ وَنَقْلِها، الحياةُ بموجبها.

لا بدّ، إذًا، من معرفة. لكنّ المعرفة لا تكفي وحدها. لو كانت تكفي، لما كان بولس قد قال لتلميذه، بعد أن أوصاه بالتقشّف: «وتحمّل المشقّات». فالرسول يعرف ما يريده من تلميذه. وما يريده أن يعلن كلمة الله، ويلحّ فيها دائمًا، ويوبّخ، وينذر...، ولا سيّما أن يتحمّل المشقّات، ليقدر على أن «يعمل عمل المبشّر»، ويقوم بخدمته «خير قيام». فالمشقّات، وهي الصعوبات والمحن وكلّ عناء، معنى من معاني التقشّف. وتحمّلها دلالة على أنّ معرفة الكلمة تفترض جدّيّةً، ودرسًا، وطاعةً في الحياة، وجهادًا في

سبيل حفظ المؤمنين، واستعادة الذين تدغدغهم أقوال المنحرفين، أو الذين وقعوا في فخّهم، وذلك حتّى يصدق حبّنا لله، ويظهر أنّه، عندنا، أهمّ من الدنيا.

معنى ذلك أنّ التقشّف في سبيل حقّ الكلمة وتعليمها، إن لم تُرَ علاماته ظاهرةً علينا، فباطلاً نتعب. فإنّنا، إن حثثنا الناس، ليل نهار، بكلمة الحقّ، التي نبدو أنّنا نتقنها خير إتقان، فسيعتقد مَنْ يسمعنا أنّنا قوم مراؤون، نقول الشيء، ولا نعمله. هذا لا يعني أنّ الذين يسمعون الكلمة من طريقنا، إن فتحوا قلوبهم لله، لا يخلصون. لربّما يخلصون. ولكنّنا، نحن غير المتقشّفين، لا يمكننا أن نخلص. الله يريدنا أن نتقشّف، أي أن نبيّن أنّه مَنْ يأخذ ألبابنا، وليس أيّ أحد آخر أو شيء آخر، وذلك قَبْلَ أن نتكلّم، أو إذا قصدنا أن نتكلّم، أو فيما نتكلّم. فالمؤمن الواعي يعرف، إذا تكلّم، أنّه إنّما يحثّ ذاته بالكلمة التي يعلّمها قَبْلَ أن يحثّ غيره. هو نفسه المطالب بالطاعة قَبْلَ أيّ إنسان.

ومعنى ذلك، أيضًا، أنّه لا يجوز بنا أن نصرف وقتنا كلّه باللهو. فمعظمنا غالبًا ما يحلو له اللهو غير النافع، فيصرف حياته بأنشطة يظنّها مسلّيةً، وبالسهر، واللعب (لعب الورق، مثلاً، ميسرًا أو تسليةً)، والأحاديث الفارغة، ولا يفرّغ دقائقَ عدّةً لقراءة الكلمة التي هي «غذاء يوميّ للمؤمن ومتّكأ ترمى عليه الهموم». ليس هذا ضدّ التسلية التي للبنيان (١كورنثوس ١٤: ٣)، بل ضدّ صرف الوقت من دون تمييز، أو تفضيل الفاني على الباقي.

يبقى أن نتقشّف، لأنّ الله يحتاج إلى مَنْ يبذلون جهدهم كلّه في سبيل «ظهوره وملكوته». مَنْ يؤمنْ بظهور الله القريب، ويحيَ في ربوع ملكوته منذ الآن، لا يُغرق نفسه في وحل الأرض، ولا يَقبل أن تلمع الدنيا في عينيه، ولا يستغرق في ما يبدو له جميلاً أو طيّبًا فيها. وهذا التقشّف هدفه أن نتقدّس بطاعة الكلمة، وأن نحمي أنفسنا، وَمَنْ وُضِعوا على طريقنا، من كلّ عيب وهوًى. أن نتقشّف عن الدنيا وغناها، هو أن نستغني بمعرفة الكلمة. فالكلمة دنيا المطيعين وثروتهم الحقيقيّة، وهي حجُّهم في الأرض وتكليفُهم، ليقوموا بخدمتها، في أزمنة الفوضى والتكاسل والاستسهال، بعون الله، «خير قيام».

المنافسة في الإكرام

يتنافس الناس عمومًا، ليثبت كلّ منهم نفسه، ويعلو على غيره. وهذا مرض شائع في هذا الزمن الذي تتأكّله البغضاء وحبّ الذات. وما يؤكّد استفحال هذا المرض أنّك من النادر أن تجد أحدًا يريد الإكرام لغيره، ولا سيّما إذا كانت لا تجمعه به صلة قربى (جسديّة). وإذا صدف أنّه أراد، فتراه لا يقدّر أحدًا قَبْلَ نفسه، أو أكثر من نفسه. فإنسان هذا الزمن وحيد، أو أسير نفسه وشهواته. وليس من أسرٍ للذات يمكّن أحدًا من أن يفهم الحرّيّة التي أرادها الله لبني البشر.

ابتغاء هذه الحرّيّة، قال الرسول لمؤمني كنيسة رومية في معرض إرشادات عامّة قوامها الحياة الجديدة أو وحدة الكنيسة: «تنافسوا في إكرام بعضكم لبعض» (١٢: ١٠).

لا يجدّد الإنسان نفسه إلاّ على الله المجدّد والموحّد. أن تريد الكرامة لإخوتك، وللناس جميعًا، أي أن تحسب أنّ الآخرين خير منك، وأن «تستهدف صالحهم أكثر من صالحك» (رسالة اقليمس الأولى إلى كنيسة كورنثوس ٤٨: ٥ و٦)، لهو أن تعي أنّك نزيل في عالم فانٍ، وأنّ الباقي هو وجه ربّك الذي يجود بنعمه على الكلّ بلا تمييز. وهذا يعني أن تفهم القربى التي حقّقها الله للناس بموت ابنه على الصليب حبًّا بك وبالناس جميعًا، وأن تتحرّك، تاليًا، بموجب النعم التي توحّد الجماعة، وفق قول الرسول: «فإذا تألّم عضو، تألّمت معه سائر الأعضاء. وإذا أكرم عضو،

سرّت معه سائر الأعضاء» (١كورنثوس ١٢: ٢٦).

كلّ تصرّف حسن أساسه أنّ الله أحقّ بالمحبّة والطاعة من جميع الناس. إذ ليس في العالم حبّ أعظم من الحبّ الذي كشفه الله بفداء وحيده. والإكرام من الله، وليس من أحد سواه. وله، وحده، «الإكرام والمجد أبد الدهور» (١تيموثاوس ١: ١٧، ٦: ١٦؛ أنظر أيضًا: عبرانيّين ٢: ٩؛ رؤيا يوحنّا ٤: ١١، ٥: ١٣، ٧: ١٢). وهو كرّم الإنسان لمّا أوجده، وكرّمه لمّا فداه، وأعطاه الحياة الأبديّة التي لا يدخلها إلاّ الثابتون «على العمل الصالح»، أي الساعون «إلى المجد والكرامة والمَنعة من الفساد» (رومية ٢: ٧).

يطلب الرسول، إذًا، من المؤمنين أن «يتنافسوا في إكرام بعضهم لبعض». وهذا، مقبولاً، يصحّح إنسانيّتنا، ويبعد عنّا كلّ انغلاق مقيت وفرديّة قاتلة. أن تنافس غيرك لتكرّمه، أي أن تراه حقًّا أنّه خير منك، معناه أنّك تؤمن بإكرام الله له، وتاليًا بوجود مَنْ تكرّمه ومواهبه التي تنفعه، وتنفع الجماعة كلّها. التنافس إرادة من الله فيك تحثّك على أن ترى الجمال والخير والرضى في مَنْ حازها، أو يسعى إليها. وهذه لا يصحّ وعيك إيّاها إن لم تردها له كما تريدها لنفسك، أو قَبْلَ نفسك. وما يبهج، في هذا الطلب، أنّ الرسول رجا أن يكون التنافس في الإكرام متبادلاً. وهذا، بمنطق هذا العالم، غريب. إذ من الصعب أن تجد أحدًا، في الأرض، ينافس غيره في أمر، أي في العلوم والمهن والرياضة وغيرها، ولا يريد الإكرام لنفسه أوّلاً. إذًا، بولس لا يتكلّم، ولا يريدنا أن نتكلّم ونتصرّف، بمنطق هذا العالم، بل بمنطق السماء الذي لا يشبهه منطق في الأرض، أو يوازيه.

ربّما تجد، في الجماعة التي تحيا وإيّاها، مَنْ لا يريد الإكرام لغيره، أي مَنْ يرى نفسه أفضل من الكلّ. كلام بولس، وإن كان ظاهريًّا لا يقول هذا، إلاّ أنّه يفترضه. وذلك بأنّ جماعة الله أبوابها مفتوحة، وقد ينضمّ إليها مَنْ يصرّ على اعتناق فكر الأرض. السؤال: كيف تعامله؟ طبعًا، لا يبني الرسول كلامه على تصرّفات الناس التي ليست كلّها من وحي السماء. فالمؤمن، إذا لم يكن سلوك الآخرين تجاوبًا مع الله، لا يمكنه أن يسند سلوكه إلى سلوكهم. المؤمن، الذي تلزمه طاعة مشيئة الله، حرّ، في هذا الوضع، من الناس. ومعنى هذا أنّك، إن لم تحرّر ذاتك من كلّ شهوة رديئة تريد أن تلهيك عن الطاعة، لا تقدر على أن تتجاوب مع إرادة الله. المؤمن يبني على الله، ولا يبني على سواه. ولذلك لا يمنع نفسه من إكرام إخوته، ولو لم يجاره أحدهم، حتّى لا يظلم، أو يبطل فعله، أي حتّى لا يمنعه ظلمه من رؤية جمال الله مرتسمًا على وجوه المطيعين، أو يمنعه من أن يساعدهم على أن يستحقّوا الإكرام، ويعودوا إلى التنافس الشرعيّ. ففي الأخير، الإكرام لله. وَمَنْ يكرّم الناس، لا يفعل ذلك، ليمدح لحمًا ودمًا، فالله لا يرضى بالمديح المغرّر، بل يكرّمهم واعيًا أنّه لم يعطَ أن يدين أحدًا، ويكرّمهم، ليرفع نفسه والناس جميعًا إلى الله المعطي، مجّانًا، من دون منّة.

مَنْ يقدر على أن يكون حرًّا من كلّ ظلم وانفعال، يساهم في تأسيس علاقة راضية في الجماعة التي ينتمي إليها. والله هو المؤسّس. يجب أن نؤمن بأنّ الله ينتظر منّا أن نتجاوب مع مشيئته دومًا، ولا سيّما في أوقات الخفّة والفوضى وشيوع التشويه. والمؤمن، إذا تصرّف بالحسنى، يعلّم،

ويذكّر. وشأنه أن يفعل، كيلا يسقط، هو أيضًا، في جبّ الفساد. فشيوع التشويه لا يبرّر المؤمن الواعي إذا سقط، ولا ينفع أحدًا. والربّ يريدنا، في كلّ وضع، أن ننتفع بمنافعه، وأن نحثّ، بسلوكنا الحرّ، الغارقين في وحل الأرض، على أن يمتشقوا إلى نوره الساطع، ويذكروا صلاحه، ويعملوا به وفيه، ليظهر أنّه المكرَّم والمكرِّم.

فلنتنافس، إذًا، في إكرام بعضنا لبعض، لأنّنا، إن فعلنا، نكرّم الله، ونبيّن، حقًّا، أنّنا ننتمي إلى حبّه وخيره وجماله وحرّيّته، وأنّنا نؤمن بأنّه المنعم بسخاء ودومًا.

«لا تغربنّ الشمس على غيظكم»

هي واحدة من وصايا عديدة (نبذ الكذب والغضب والسرقة والكلام الفاسد)، أدرجها بولس الرسول في سياق تعليمه المؤمنين، في كنيسة أفسس، عن أسس الحياة الجديدة (٤: ٢٦). وهي تعنينا جميعًا نحن الذين نحيا في عالم شاع فيه الغضب وتأكيد الذات الفرديّة. وتساعدنا، مؤمنين، على مصالحة روح السلام الذي يوطّد القلب، ويجمع الناس التماسًا لدوام رضا الله وحبًّا بالشهادة التي هي عصب الوجود.

ربّ أحد يقول إنّ الغيظ، الذي هو، لغةً، الغضب أو أشدّه (وقيل، أيضًا، إنّه سَوْرته، أو أوّله)، موجود في الإنسان طبيعيًّا. وهذا صحيح. أو ليس كلّ غضب شرًّا بالكلّيّة. وهذا صحيح أيضًا. فآباء الكنيسة عرفوا هذا القول وذاك، ورأوا أنّ الغضب الطبيعيّ موجود في الإنسان من أجل إحقاق الحقّ، وأنّ ثمّة غضبًا مُصْلِحًا يراد به تقويم الخاطئ وإصلاحه. غير أنّ آباءنا انتبهوا إلى أنّ الغضب يمكن أن ترافقه تصرّفات مشينة، وأن يتحوّل إلى غضب شرّير. ولذلك دعوا المؤمنين إلى حفظ السلام دائمًا، وحذّروهم من كلّ غضب، حتّى لا يتدنّسوا. وهذا ما أكّده الرسول يعقوب، بقوله: «على كلّ إنسان أن يكون سريعًا إلى الاستماع بطيئًا عن الكلام، بطيئًا عن الغضب، لأنّ غضب الإنسان لا يعمل لبرّ الله. فألقوا عنكم كلّ دنس وكلّ ما يفيض من شرّ، وتقبّلوا، بوداعةٍ، الكلمة المغروسة فيكم والقادرة على خلاص نفوسكم» (١: ١٩- ٢١).

بكلام لا يبعد عمّا ذكرناه، يمكننا أن نلاحظ أنّ قولة بولس يمكن أن توحي أن ليس كلّ غيظ، أو غضب، شرًّا بالكلّيّة. فهو لم يقل لا تغتاظوا البتّة، بل «لا تغربنّ الشمس على غيظكم». وقصدُهُ أنّك، إن اغتظت، وكان سبب غيظك محقًّا، لا تجعل الوقت يمرّ عليه، لئلاّ يتوغّر، فترتكب إثمًا مضاعفًا، وتدنّس نفسك، و«تعثّر نفوسًا كثيرةً، وتثبط عزمها» (السلّم إلى الله ٨: ١٨). فإن حللت ما سبّب لك الغيظ توًّا، أو في اليوم ذاته، فأنت قادر على أن تحافظ على سلامك، أو تستعيده، وأن تبقي علاقتك بِمَنْ سبّبه لك طبيعيّة. وهذا قد يعطيك، مؤمنًا، أن تساعد غيرك على تصحيح ما بدا خطأً في تصرّفه. فالغيظ، إذا توغّر، لا يليق بالإنسان، ويعطّل كونه شاهدًا لمحبّة الله ورحمته.

لا يغضب أحدنا، عادةً (ما لم يكن الغضب الشرّير عيبًا فينا متأصّلاً)، على غيره إن لم يثره غيره. غضبنا، عمومًا، قد يأتي نتيجة غلط أحدهم، أو تفسيرنا تصرّفاته على هوانا. وهذا قد يكون غريبًا، أو جارًا، أو صديقًا، أو قريبًا، أو أحد أفراد عائلتنا أو رعيّتنا. بولس، هنا، يريدنا، مؤمنين، أن نعامل جميع الناس معاملةً واحدة. هو قال ما قاله، ولم يحدّد على مَنْ يجب ألاّ نغتاظ، أو نغضب كثيرًا. يريد سلامًا سريعًا مع كلّ الناس قريبين كانوا أو بعيدين. لأنّه يعرف أنّ الله هو ديّان العالم وحده، ولأنّه ينتظر أن يغيّر السلام السريع قلب المغتاظ وَمَنْ سبّب له الغيظ، وينقذ علاقتهما.

يعرف المؤمنون أنّهم، إذا حاول أحد الناس إغاظتهم أو إغضابهم،

لا يمكنهم، إذا خطئوا، أن يبرّروا أنفسهم، أو يلقوا تبعة تصرّفهم على غيرهم. فالمؤمن لا يبرّره أنّه لم يكن أوّل مَنْ سبّب الخطأ. فإذا قَبِل الخطأ، أو دخل لعبة الشرّ، صار، برضاه أو من دون رضاه، شريكًا فيه. ليس المهمّ مَنْ يبتدئ بإثارة الخطأ، بل مَنْ يخرج من قبضة إبليس من دون أن يتدنّس، وَمَنْ يحاول، إن أمكن، أن يردّ الذين يثيرون الشرّ، أو يعملونه، إلى الله وحقّه.

هذا أثبته الرسول، في موقع آخر، بقوله: «لا تدع الشرّ يغلبك، بل اغلب الشرّ بالخير» (رومية ١٢: ٢١). فالمطلوب من المؤمن أن يكون فاعل خير دائمًا، ولا سيّما إذا هاجمه شرّ الأشرار. وفعلُ الخير لا يفترض أن تصحّ تصرّفات المؤمن في أوقات الفوضى فحسب (على أهمّيّة هذا الأمر)، بل، أيضًا، أن يكون المبادر الأوّل في حلّ أيّ مشكلة. أن يقول مؤمن: ليس عليَّ حقّ في الخطأ الذي جرى بيني وبين صديقي، أو أخي، أو زوجتي (والخلافات بين الزوجين كثيرة في هذه الأيّام)، وينام مطمئنّ البال، والخلاف قائم، أو أن يقول: لست المذنب، لأعتذر، أو لأسعى إلى معالجة الوضع، يعني أنّه لم يفهم شيئًا من فعل الخير. فعلُ الخير لا يوافقه أن يذكر المؤمن، دائمًا، أنّه غير مسؤول عن الخلافات الطارئة، أو التي يرضى أن تتحكّم، أي لا يوافقه أن يحيا في ذاكرة مريضة. ولا يوافقه، تاليًا، أن يوحي بأنّ كرامته لا تسمح له بأن يبادر إلى حلّ الأمور المخالفة. فكرامة الإنسان أن يرضي ربّه. وليس خارج رضا الربّ من كرامة. والأمور المخالفة لا يجوز أن يمرّ يوم من دون أن تُحلّ. هذا، وحده، يدلّ على أنّ الربّ هو

الذي يسود كلّ علاقة بين الناس، وأنّ أوامره لا تناقش، ولا تُرَدّ.

أن نحلّ أمورنا توًّا، أو في اليوم عينه، لهو من مقتضيات حياتنا الجديدة. وهذا، الذي يفترضه وعينا أنّ الناس جميعًا «إخوتُنا في الإيمان» أو في الإنسانيّة، هو تأكيدنا الثابت أنّنا نؤمن بـ«المسيح سلامنا»، وأنّنا نرجو أن يبعد عنّا غضبه في اليوم الذي ستظهر عيوبنا، أمامه، واضحةً وضوحَ الشمس.

أن نتشدّد بالنعمة

لمّا قال الرسول بولس لتلميذه تيموثاوس: «تشدّد أنت، يا بنيّ، بالنعمة التي في المسيح يسوع» (الرسالة الثانية ٢: ١)، كان يعرف أنّ الإنسان، ولو كان ملتزمًا حياة الكنيسة بجدّيّة ظاهرة، قد يسقط بظنّه أنّ قوّته منه، أو من العالم الذي يحيا فيه. أكبر إغراء قد يواجه الإنسان هو هذا الظنّ المعيب. فالقوّة من الله، أو من نعمه. وإذا ظهر الإنسان موافقًا عطاء الله، فهذا يجب أن يكون له بابًا للشكر والاسترحام دائمًا.

المؤمن الواعي يعرف، في قلبه، أنّ الله يعطي الإنسان من ذاته، ويعطيه ذاته، مجّانًا، ومن دون أن يستحقّ أحد عطاءاته. النعمة هذا معناها. إنّها عطاء الله المجّانيّ وغير المنتظَر وغير المستحَقّ. وبولس، الذي يعلّم هذا المعنى، يريدنا أن نعيه حقًّا، أي أن نعي، أوّلاً، أنّ الله المعطي هو معطٍ في كلّ وقت، وهذا يعني أنّه لا يبطل العطاء، وأنّنا، مؤمنين، نستمدّ حياتنا وقوّتنا منه. ويريدنا، تاليًا، أن نتعلَّم أن نعكس هذا الوعي المربّي، في حياتنا، شكرًا واسترحامًا، لندلّ على وعينا أنّ الله يمنّ علينا بنعمه بدافع محبّته وسخائه. فالرحمة ليست حاجة المؤمن، إذا ضعف أو أخطأ فحسب، بل حاجته دائمًا، ولا سيّما إذا تشدّد، حتّى لا يستكبر، أو يخالف ويسقط، أي حتّى لا يظنّ أنّ قوّته منه.

قد يظنّ الإنسان، إذا كان مقتدرًا في الدنيا أو فهيمًا أو جميلاً...، أنّ قوّته منه. وبولس، بكلامه، يوصي، ويحذّر. هو يعرف أنّ تلميذه

تيموثاوس متشدّد بنعمة الله. لكنّ معرفته لا تمنعه من التوصية والتحذير. هذا من أصول التربية المسيحيّة والرعاية الصحيحة. والتوصية والتحذير لنا أيضًا، لكيلا يفوتنا أنّ ما نحسبه قوّةً في العالم هو باطلٌ وإلى زوال. «العالم يزول هو وشهواته. أمّا مَنْ يعمل بمشيئة الله، فإنّه يبقى إلى الأبد» (١يوحنّا ٢: ١٧). وهذا، إن عرفناه وأيقنّا به حقًّا، دعم أساس لنا في مسيرة جهادنا. فالخطيئة نوع من الاعتقاد بأنّ الدنيا أبديّة، أو أنّنا نحن باقون فيها أبدًا. هذا وَهْمُ الخطيئة وإغراؤها في آنٍ. ولذلك إذا لمع في أعيننا العالم وما نظنّه قوّةً فيه، نسقط من أيّ درجة برّ وصلنا إليها. وهذا يعني أنّ مَنْ يحسب أنّ قوّته بماله، أو بعلمه وذكائه أو بجماله، هو، من حيث يدري أو لا يدري، يحسب أنّ قوّته منه، أو أنّه خالد في الأرض. أمّا المؤمن الذي «يعمل بمشيئة الله» (أي الذي يعتقد بأنّ الله قوّته)، إذا حاز مالاً أو علمًا أو كان جميلاً حقًّا، فلا يجعله هذا ينسى أنّ «العالم يزول»، أي لا يغترّ، ولا يفقد وعيَهُ فقرَهُ وبطلانَ كلِّ شيء، وأنّه إنّما يحيا بفضلِ نعمِ اللهِ وجودِهِ. وهذا، عنده، هو الخلود الذي لا يقوله العالم، ولا يعطيه.

ثمّ إنّ قولة «تشدّد بالنعمة» يمكن أن تعني: ثَمِّرْ ما وهبك الله إيّاه بإخلاصك له ولمقتضياته. فالالتزام، الذي قاعدته قبول نعمة الله، يفترض أن يعي الملتزم دوره في الخدمة، وأن يعمل ما يرضي ربّه دائمًا. ولذلك قال بولس لتلميذه بعد قوله الأوّل توًّا: «واستودع ما سمعته منّي، بمحضر كثير من الشهود، أناسًا أمناء جديرين بأن يعلّموا غيرهم» (الآية الـ٢). وهذا معناه أنّ الذين منّ الله عليهم بنعمه لا يبطلون العمل النافع، وهو، هنا،

أن «يعلّموا غيرهم». فالمتشدّدون بالنعمة بشر يعرفون، في أعماقهم، أنّ الله يريدهم أن ينقلوا حبّه لجميع الناس، أي أن يحاولوا أن يحوّلوا العالم إليه. أن تتعب من أجل نقل ما سمعته من الله إلى الأمينين والقادرين على تعليم غيرهم، وإلى الناس جميعًا، قاعدة وعيك أنّ الله وهبك نعمًا مثمرةً، وأنّ الأمور تصير لك ولغيرك بفضل نعمه وحده. ولكن، حتّى لا نظنّ أنّ تثمير النعمة يصير بنقل الكلمة فحسب، أضاف الرسول: «شاركتني في المشقّات، شأن الجنديّ الصالح للمسيح يسوع». ثمّ أوصاه (وأوصانا أيضًا) قائلاً: «ما من أحد يُجَنّد يشغل نفسه بأمور الحياة المدنيّة، إذا أراد أن يرضي الذي جنّده» (الآيتان ٣ و٤). ومعنى هاتين الآيتين أنّ نعمة الله، حتّى تثمر، تفترض، إلى جانبِ التعليمِ وَنَقْلِهِ، إخلاصًا لله في الحياة. ومن مظاهر الإخلاص هنا المشاركة في المشقّات. وهذه تعني أنّ محبّتنا لله، الذي كلّفنا أن ننقل كلمته المحيية، تظهر، حقًّا، في الظروف الصعبة والشدائد. ففي أوقات السلام، قد يكون إخلاص المخلصين أمرًا عاديًّا. أمّا في أوقات المحن والفوضى، فإخلاصنا يبيّن مدى إيماننا بالله المنعم وصدقنا وجدّيّتنا. والجدّيّون لا يكون إخلاصهم كاملاً إلاّ إذا شغلتهم خدمةُ الله مراضاةً له ولمجده وحده. هذا يبيّن أنّهم فهموا أنّ كلّ ما يفعلونه هو بفضل نعمة الله الصالحة وجوده عليهم.

إنّ نعمة الله، («التي في كلّ حين للمرضى تشفي وللناقصين تكمّل»)، هي قوّة المؤمن في حياته وجهاده كلّه. فالله، بنعمه، يجذبنا، ويقوّينا، حتّى نسلك سلوكًا مثمرًا، ونوافق رضاه.

هذا ما أراده بولس الرسول بقوله، حتّى نكون، بفضل نعم الله وإحساناته الجمّة، جنودًا صالحين للمسيح، وتقع علينا، في يوم الفحص، بركات الآب.

«أزيلوا الفاسد من بينكم»

يردّد هذا الأمر، الوارد في الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس (٥: ١٣)، ما جاء، قديمًا، في سفر تثنية الاشتراع (١٧: ٧). وإذا رجعنا إلى هذا السفر، وقرأنا الدافع الذي دعا إلى هذا القول، لا يخفى علينا أنّ الله أراد به أن يتطهَّر شعبه من شرّ القبائح النتنة التي قد تأكّد من أنّها كانت تُصنَع في إسرائيل، ومنها: عبادة آلهة أخرى، أو السجود لها، أو للشمس، أو للقمر، أو لسائر قوّات السماء (تثنية الاشتراع ١٧: ١– ٧).

وما يبدو، جليًّا، للقارئ أنّ لقول بولس دافعًا يشبه الدافع عينه المذكور في السفر القديم، ولو اختلف نوع القبيحة. فكلّ خطيئة إنكار لله، وهي، بمعنى من المعاني، شرك. وإذا قرأنا قول الرسول في موقعه (٥: ١– ١٣)، لا يخفى علينا، أيضًا، أنّه يبني حكمه على خبر مؤكّد. نقرأ: «لقد شاع خبر ما يجري عندكم من فاحشة، ومثل هذه الفاحشة لا يوجد ولا عند الوثنيّين، فإنّ رجلاً منكم يساكن امرأة أبيه» (الآية الـ١).

يحكم بولس، إذًا، على مساكنة غير شرعيّة. يقول: «إنّ رجلاً منكم»، أي من أعضاء كنيسة كورنثوس. ويصدمه أنّهم سكتوا عن هذه الفاحشة. هل لم يكونوا يعلمون أنّ هذه القبيحة استنكرتها الشريعة القديمة (أحبار ١٨: ٨)؟ إن كانوا لا يعلمون، فلماذا لم يسألوا الرسول عن هذا الوضع؟ فمضمون رسالته هو، عمومًا، أجوبة عن أسئلة تلقّاها منهم، أو معلومات وصلت إليه عنهم. هل علم بهذا الوضع من غير أن يسألوه؟

توبيخه الشديد يوحي بذلك. ولكن، لماذا سكتوا؟ هل عرفوا أنّ بعض الربّانيّين كانوا يتساهلون، أحيانًا، في مثل هذا القران (أي يتجاوزون تحريم سفر الأحبار)، ولا سيّما مع الوثنيّين الذين انضمّوا إلى الدين اليهوديّ، وأنّهم، تاليًا، بنوا على هذا التساهل، وسكتوا عن رجل اعتنق المسيحيّة حديثًا؟ هذا ممكن. غير أنّ بولس يوبّخهم توبيخ العارفين. فهو لا يقبل بأيّ انحراف. هذه المساكنة فاحشة، أي فساد عامّ لا يليق بِمَن انتسب إلى مسيح الله وطهره، ولا بجماعته.

لا يمكننا أن نستطرد كثيرًا في تعداد أنواع العقوبات التي كانت تفرض على الخطأة في الكنيسة الأولى. لكن، ما يمكننا تأكيده أنّ معظمها كان يهدف إلى معالجة الساقطين. فليس من حكم هدفه إقصاء الخطاة نهائيًّا (اللّهمّ إلاّ إذا أصرّ الخاطئ على خطيئته)، ولو أنّ بعض العقوبات كان يطلب إبعاد الساقطين، في بعض الخطايا، لسنوات طويلة. وهذا، في كلّ حال، يؤكّد الجدّيّة التي كانت تنتظر الكنيسة أن يتحلّى بها المؤمنون (عبرانيّين ٤: ٤- ٧). فَمَن انتسب إلى الله، دعوتُهُ أن يخلص له في كلّ أمر. وإذا سقط، يعني أنّ انتسابه مهزوز، وعلى الكنيسة أن تساعده على معالجة نفسه. وهذا يفترض، أحيانًا، ألاّ تخالطه، ليخجل (٢تسالونيكي ٣: ١٤ و١٥)، أي أن تبعده قَبْلَ أن تصالحه من جديد. ولا تصالحه قَبْلَ أن تتأكّد من توبته كلّيًّا. وربّما هذا يمكن أن نستشفّه من قول الرسول: «حتّى يهلك جسده، فتخلص روحه في يوم الربّ» (الآية الـ٥). فبولس لا يعتقد أنّ الإنسان، إذا أخطأ، يهلك جزء منه (جسده)، وإذا برّره الله، يخلص جزء

(روحه). فالإنسان واحد، ويهلك كلّه، أو يخلص كلّه. ومعنى قوله الأخير أنّ قرار إخراج الخاطئ من الجماعة هدفه مساعدته على اكتشاف شرّ ما عمل، ليتوب عنه هنا، ويخلص «في يوم الربّ». وهذا، من دون شكّ، يوحي بقبول الجماعة له إذا تاب[١].

طبعًا، قرار بولس في إبعاد الفاسد، لا ينفع مَنْ سقط في فساد حصرًا، بل الجماعة كلّها، ولا سيّما الضعفاء والمؤمنين الجدد. فالفاسد، إذا سُكت عنه، فربّما يشجّع فعله الذين لمّا يثبتوا على اقتفاء أثره واستسهال كلّ شرّ. ولربّما هذا ما قصده بولس في قوله: «أما تعلمون أنّ قليلاً من الخمير يخمّر العجين كلّه» (الآية الـ٦). فالفاسد خطره أنّه (قد) يؤثّر سلبًا في الذين لم يثبتوا في التزامهم.

بعضنا يعتقد أنّ حكمًا مثل هذا (وهو قليلاً ما يمارس اليوم) يخالف رحمة الله. وليس هذا المعتقد، بالضرورة، تبريرًا للتخاذل ولعدم الجدّيّة. لكن، ما الرحمة؟ طبعًا، الله لا يصعب عليه أمر. فهو القادر على كلّ شيء. ولكنّ رحمة الله يفترض حقّها أن يطلبها الإنسان أيضًا، وأن يطلبها بوعي المحتاج إليها، وأن يتوب فعلاً، ويشكر لله حبّه وطول أناته. ورحمة الله لا تلغي دينونته. الدينونة حقّ الله، وهي من وجوه محبّته.

١- يعتبر القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم أنّ الرسول، في رسالته الثانية إلى كورنثوس ٢: ٥- ١١، شجّع الكنيسة على أن تقبل الرجل الذي اعتبره فاسدًا هنا، ما يوحي بتوبته (تقاريظ القدّيس بولس، الخطبة السادسة: ١٠). ولكنّ مفسّرين كثيرين، اليوم، يعتبرون أنّهما رجلان مختلفان.

والله لا يقرّر دينونتنا إلاّ إذا قرّرناها لأنفسنا (طيطس ٣: ١١). بمعنى أنّ الله يحاكمنا بناءً على ما فعلناه خيرًا كان أو شرًّا. هو يريدنا مستقيمين، ويساعدنا على ذلك، ولا يتركنا، ولو خالفناه. وليس من أحد يقدر على الاستقامة، فعلاً، إلاّ إذا تحرّر من كلِّ وَهْمٍ، واعتبر «بلين الله وشدّته» (رومية ١١: ٢٢).

هذا الحكم، الذي أطلقه بولس، هدفه إحياء مَنْ أخطأ وإحياء الجماعة التي أُوصيت بالاستقامة. فالرسول لا يريدنا ألاّ نخالط الذين يسقطون في متاهة هذا العمر الزائل، وإلاّ «وجب علينا الخروج من العالم» (الآية الـ١٠). لكنّه يريد أن نبتعد عَمَّنْ «يدعى أخًا»، ولا يحيا ببرّ الالتزام (الآية الـ١١). ولا يريدنا، بابتعادنا عنه، أن نهمله، فالإهمال نوع من أنواع الإدانة المرفوضة، بل أن نساعده على إصلاح نفسه. ابتعادنا عنه هو تربية له وتحصين للجماعة، وهو، بالأخصّ، تفرّغ كامل له، ليقدر على أن يعي مرارة البعد، ويرجع أخًا حقيقيًّا، أي ابنًا لله، ويثبت في طهره المنجّي.

التصرّف الحكيم مع الذين في الخارج

بعد أن أكمل بولس حثّه مؤمني كولوسّي على أن يواظبوا على الصلاة «ساهرين فيها وشاكرين»، ولا سيّما أن «يصلّوا من أجله»، لكي «يفتح له الله بابًا للكلام»، ويبشّر «بسرّ المسيح» (٤: ١- ٤)، طلب منهم قائلاً: «تصرّفوا بحكمة مع مَنْ كان في خارج الكنيسة منتهزين الفرصة السانحة. ليكن كلامكم دائمًا لطيفًا حليمًا، فتعرفوا كيف ينبغي لكم أن تجيبوا كلّ إنسان» (٤: ٦).

فيما يأخذنا معنى هذا القول، لا بدّ من التأكيد، بدءًا، أنْ ليست في المسيحيّة ازدواجيّة في الكلام أو التصرّف. فالمسيحيّة واحدة. وكلّ ما تطلبه، في سياق التعليم والحياة، هو واحد. والمسيحيّون فرادتهم حبّهم وانفتاحهم على جميع خلق الله. وما من شرط عليهم إلاّ ما وضعه ربّهم لخيرهم وخير الذين جعلهم وإيّاهم في معيّة طيّبة، أو وضعهم على طريقهم.

مِنْ أوجه انفتاح المسيحيّين انخراطهم في الدنيا، ولو أنّ هذا الانخراط لا يخلو من بعض أخطار. فللعالم أفكاره ونظمه وقوانينه وقواعد تصرّفاته. وهذه ربّما لا تنسجم كلّيًّا، أو جزئيًّا، مع أفكار المسيحيّين وقانون حياتهم. وقد يولّد عدم الانسجام توتّرًا، أو يفرّق الناس بعضهم عن بعض. وقد يعزل بعضًا. وقد يغري العالم بعض المسيحيّين، ولا سيّما إن كانوا ضعفاء. وقد يسقط بعضهم. غير أنّ هذه الأخطار، وغيرها، سبب للانتباه، وليست سببًا لترفُّع أحد، أو انعزاله. وعصب الانتباه أن يلتزم

المسيحيّ ذِكْرَ أنّه يحيا في عالم ليس هو منه. ومعنى هذا أنّه يقطنه، ويواكبه، وينقّحه بقانون موطنه الذي في السماوات (فيلبّي ٣: ٢٠).

هذا كلّه يفترضه رسول الأمم قَبْلَ أن يقول للمسيحيّين: «تصرّفوا بحكمة مع مَنْ كان في خارج الكنيسة»، أي مع الذين يشاركونكم في الحياة، ولا يشاركونكم في معتقداتكم الدينيّة (أنظر: ١كورنثوس ٥: ١٢ و١٣؛ ١تسالونيكي ٤: ١٢؛ ١تيموثاوس ٣: ٧؛ ١بطرس ٢: ١٢). فَمَنْ كانوا في الخارج، تفترض الحياة معهم حكمةً بالغة. ولا يقصد بولس، بلفظة «حكمة»، حكمة هذا الدهر التي لا تؤسّس عليها شهادة صحيحة (١كورنثوس ١: ١٧- ٢١، ٢: ١، ٣: ١٩)، ولا الحنكة البشريّة في علاقتنا مع الذين لا يقاسموننا آراءنا الدينيّة أو السياسيّة، بل الحكمة التي يعجز كلّ الناس «عن مقاومتها أو الردّ عليها» (لوقا ٢١: ١٥)، وهي المسيح نفسه (١كورنثوس ١: ٢٤ و٣٠، ٢: ٦؛ أفسس ١: ١٨، ٣: ١٠؛ كولوسّي ١: ٢٨، ٣: ١٦)، «الذي استكنّت فيه جميع كنوز الحكمة والمعرفة» (كولوسّي ٢: ٣).

ثمّ ما يريده بولس من المسيحيّين الحكماء، في تصرّفهم مع غير المسيحيّين، هو أن ينتهزوا «الفرصة السانحة». وهذا يعني شيئين. الأوّل أن ينتهزوا كلّ ظرف، ليبيّنوا الحكمة التي زرعت فيهم. والثاني أن يسرعوا، في التصرّف الحكيم، قَبْلَ أن يختم الله زمان الناس. فالربّ جعل لنا الفرصة (أو زمن النهاية) سانحةً، لنتصرّف بمقتضى حكمته. والحكيم هو مَنْ يعرف كيف يكون كلامه، في كلّ وقت، لطيفًا ومصلحًا بملح، أي هو مَنْ تظهر

النعمة الإلهيّة، التي حازها، في جدّيّته ورصانته وفي كلّ حديث يخوضه. وهذا يتطلّب تأسّسًا على الحقّ، وخبرةً عميقةً دعامتها محبّة الجميع. وهذا، تاليًا، يأبى كلّ انفعال. فإن سقط المسيحيّ في انفعال، سواء كان هو سببه أو ردّ فعل على غيره، فقد يفقده انفعاله ملحه، ويقطع له فرصته السانحة. اللطف والملاحة، في الكلام والتصرّف، دليل المؤمن إلى «أن يجيب كلّ إنسان» عن الخير الذي فيه (أنظر أيضًا: ١بطرس ٣: ١٥). وهذا يبيّن موافقتنا الوصيّة التي لا تمنع من أن يشعر مَنْ نحاوره بأنّ لنا مزايا ليست من الأرض، فيلجأ إلى النعمة التي ظهرت على وجوهنا وألسنتنا، ويسأل عن السماء التي هبطت علينا.

سرّ المسيحيّ أنّه يأتي من السماء. لطفه وحلمه لا يدلّان عليه، بل على الله مصدر حياته الحكيمة. صحيح أنّ المسيحيّ لا ينكر على أحد، مِمَّنْ لا يشاركه في إيمانه، أنّه حبيب الله. لكنّ الصحيح، أيضًا، أنّه، في ما يقوله ويعمله، لا يساوم على الإيمان الذي «سلّم إلى القدّيسين تامًّا» (يهوذا ٣). هو، المسيحيّ، ليس همّه أن يفرض معتقداته على أحد، بل أن يشتري الناس لله. وهذا تعلِّمه إيّاه الحكمة. اللطف والملاحة ليسا فضيلتين يعلّمهما المجتمع، ولو ظهرا عند غيره مِمَّنْ لا يقاسمونه أساس حياته. هو، من واجبه أن يؤمن بمصدرهما الحقيقيّ، وأن يشكر لله أنّه يمنّ، بسبله الغنيّة، على خلقه جميعًا بفضائله المبرورة. فالله لا يحتجزه أحد. هو حرّ من الكلّ، لأنّه إله الكلّ. وهذا لا يخالفه أن يؤمن المسيحيّ بأنّ الله كشف نفسه، كلّيًّا، في ابنه الوحيد. وهذا الإيمان، الذي يلتزمه المسيحيّ ويُلزمه، لا يسمح له بأن

يحتكر الله، أو يمنعه من العمل خارج الأطر التي هي، عند المسيحيّ، نبع كلّ علاقة بالله ومداها.

أن نتصرّف بحكمة مع الذين في الخارج، هو أن نحيا بدوام الشكر لله، ونلتزم كلّ خير، وننتهز كلّ فرصة، لنبيّن للناس جميعًا كلّ محبّة صادقة، ونحاورهم بكلّ لطف وملح، ونقدر على أن نجيب كلّ إنسان بحكمة الله، بلا تعالٍ أو حصر، واثقين بأنّ لله أحبّاءه في كلّ أصقاع الأرض، وبأنّه المخلّص الوحيد الذي يرعى العالم، ليقوده إليه.

هذا باب للكلام، لنبشّر «بسرّ المسيح».

«لا تنطقوا بقبيح الكلام»

الكلام القبيح آفة لا يخفى تزايد شيوعها في زماننا الحاضر. فمعظم الناس باتوا يستسهلونه، ويردّدونه بتلقائيّة مطلقة. وَمَنْ قبح كلامه، فتًى كان أو بالغًا أو شيخًا، تراه يكاد لا يعتبر أنّ ما يفعله مخالف. والعبارة المتداولة، التي يبرّر فيها بعض المنطبعين على القبح كلّ لفظة مقيتة: «أنّ هذا يخرج من أفواهنا، ولا علاقة لقلوبنا به».

لمحاولة مواجهة هذه الآفة، سنورد وصيّةً للرسول بولس قالها في معرض وصايا عامّة تتعلّق بالحياة المسيحيّة، ونعلّق عليها. والوصيّة هي: «لا تنطقوا بقبيح الكلام» (كولوسّي ٣: ٨). ويعرف قرّاء هذه الوصيّة، في موقعها، أنّ الرسول أوردها توًّا بعد قوله: «فألقوا عنكم، أنتم أيضًا، كلّ ما فيه غضب وسخط وخبث وشتيمة».

بدءًا، لا يفوت القارئ المدقّق أنّ الرسول أراد، بقوله، أن يؤكّد أنّ الكلام القبيح هو، عمومًا، نتيجة للآفات التي عدّدها. فَمَنْ يغضبك ويحرّك سخطك، لا بدّ لك، إن كنت تستسهل الشرّ، من أن تستخبثه، وتقبّحه في غير وجه. فالكلام القبيح، إن لم يكن عادةً معيبةً متأصّلةً في الإنسان، لا ينشأ من ذاته، بل خطايا كبيرة تدفعه، فيظهر، ويدلّ عليها. ولا يعني هذا أنّ الكلام القبيح شرّ يقلّ عمّا يسبّبه. فما يسبّبه، لا يفقده كونه هو، أيضًا، شرًّا قائمًا بذاته. ولا يخفّف هذه الآفة، أو يبرّرها، أنّ يتكلّم أحد، بقبحٍ، في معرض المزاح، أو التسلية. فهذا، أيضًا، عيب كامل لا يليق

بالمؤمن الملتزم حياة حمل الله وكلماته الجميلة.

سمعت، يومًا، أحد المؤمنين يسبّ شخصًا أثاره بعد مكالمة هاتفيّة. وهذا ما لم أسمعه يفعله قَبْلاً. فاستدرك، والتفت إليَّ، وتأسّف، وبرّر نفسه بقوله: «لا تتعجّب من شتمي، فأنا ترعرعت على هذا الحال، ولا يقصده قلبي». قلت له: «لم تقل أمرًا جديدًا، فكثيرون يعتمدون تبريرك. ولكن، هل تعرف أنّ الشتم لا يليق بأيّ مؤمن ملتزم؟». ومن دون أن أنتظر جوابه، طلبت منه أن يأتي بإنجيله. ثمّ قرأت عليه الكلام التالي: «إذا كان أحد لا يزلّ في كلامه، فهو إنسان كامل قادر على إلجام جميع جسده... اللسان نار أيضًا وعالَم الإثم. اللسان بين أعضائنا يدنّس الجسم كلّه، ويحرق الطبيعة في سيرها، ويحترق هو بنار جهنّم... إنّه بليّة لا تُضبط، ملؤه سمّ قاتل، به نبارك الربّ الآب، وبه نلعن الناس المخلوقين على صورة الله. من فم واحد تخرج البركة واللعنة... أيفيض الينبوع بالعذب والمرّ من مجرى واحد؟ أم يمكن، يا إخوتي، أن تثمر التينة زيتونًا أو الكرمة تينًا؟ إنّ الينبوع المالح لا يخرج الماء العذب» (يعقوب ٣: ١- ١٢). ولمّا أنهيت القراءة، سألته رأيه في ما سمعه. فأجاب بذهول ظاهر: «لم أكن أعرف أنّ ما فعلته خطر لهذه الدرجة!». قلت له: «نحن المؤمنين، الذين نصلّي ونتناول جسد الربّ ودمه، لا يليق بنا، لأيّ سبب، أن نخالف، بكلامنا، القداسة التي نقولها ونأكلها». وسألته: «ألا تعتقد، إذا سمعنا مَنْ يعرف التزامنا نشتم، أنّه سيهزأ بنا متى سمعنا نتكلّم على لطف المسيح ووداعته؟». أمّا هو، فطأطأ رأسه، ولم يتلفّظ ببنت شفة.

ينهي الرسول، إذًا، عن كلّ كلام قبيح، بقوله: «لا تنطقوا...». والنطق، لغةً، مصدر لا يطلق على النطق الخارجيّ فحسب، بل على الداخليّ أيضًا، أي على الفهم وإدراك الكلّيّات. وهذا يعني أنّ الإنسان، متى نطق، إنّما يدلّ على ما يفهمه ويدركه. فَمَنْ نطق قبيحًا، دلّ على قباحته الخارجيّة والداخليّة في آنٍ. ولذلك لا يجوز أن يبرّر إنسانٌ واعٍ كلامًا قبيحًا خرج من فمه، بقوله، مثلاً، إنّ قلبه حرّ منه. فالربّ قال: «من فيض القلب يتكلّم اللسان. الإنسان الطيّب من كنزه الطيّب يخرج الطيّب. والإنسان الخبيث من كنزه الخبيث يخرج الخبيث» (متّى ١٢: ٣٤ و٣٥). وقال أيضًا: «لأنّه من باطن الناس، من قلوبهم، تنبعث المقاصد السيّئة والفحش والسرقة والقتل والزنى والطمع والخبث والمكر والفجور والحسد والشتم والكبرياء والغباوة. جميع هذه المنكرات تخرج من باطن الإنسان، فتنجّسه» (مرقس ٧: ٢١- ٢٣). والربّ أدرى بوحدة الكيان الإنسانيّ، وبأنّ كلّ كلام منكر يخرج من فم إنسان، وكلّ منكر، مصدره قلبه، أو باطنه.

مِنَ القباحةِ الكلاميّةِ الشتم والنميمة والافتراء والكذب والخبث والكفر، وكلّ بشاعة تهدم ولا تبني. وشأن المؤمن، إذا تكلّم، أن يدعم سامعه (أفسس ٤: ٢٩)، ويساهم في بنائه بالله المقيم فيه. وعلى الأقلّ، شأنه ألاّ يشارك في إثم غيره، ليخفّفه عنه. فقد قيل: «لا تبرّد عن فلان»، أي إن ظلمك، فلا تشتمه، فتنقص إثمه. وشأنه، قَبْلَ هذا كلّه، أن يعرف عيوبه، ويهرب من سماجتها، ويقتني فضائل الله المنجّية. هذا هو شأن المؤمن إذا أراد أن يكون تلميذًا حقيقيًّا للمسيح الذي يراقب الألفاظ ويحكم عليها.

وفي هذا قال النبيّ: «مَنْ كالسيف سَنُّوا الألسنة وسدّدوا السهام ومُرّ الكلام ليرموا البريء خِفيةً يرمونه بغتةً ولا يخافون... رماهم الله بسهم فكانت ضرباتهم مُباغِتةً وأوقعهم بسبب ألسنتهم» (مزمور ٦٣). وفي هذا أيضًا، قال يسوع: «مَنْ قال لأخيه: يا أحمق (أو راقا، وهي كلمة آراميّة معناها «رأس فارغ»)، استوجب حكم المجلس. وَمَنْ قال له: يا جاهل، استوجب نار جهنّم» (متّى ٥: ٢٢). ولقد نوّرنا القدّيس باسيليوس الكبير، تعليقًا على هذا القول الأخير، إذ قال: إنّ عبارة «يا أحمق كانت، في زمن يسوع، تستعمل بين الأهل والأصدقاء». وهذا كلّه يبيّن جدّيّة النهي الذي أوصى به الرسول.

أن ننتبه لألفاظنا، لهو من مقتضيات وعينا أنّ الربّ يسوع قدّس كياننا كلّه بموته وقيامته. وهذا الانتباه الواعي، الذي لا يوافقه أيّ قبح وتبرير، دلالة من الدلالات على توقنا أن يعدّنا حمل الله من صحبه الذين كُتِبَ فيهم «هؤلاء هم الذين افتُدوا من بين الناس باكورةً لله والحمل، وفي أفواههم لم يوجد كذب، إنّهم لا عيب فيهم» (رؤيا يوحنّا ١٤: ٤ و٥).

صوم كثير

يحلو لنا، في هذه السطور، أن نتأمّل في وجهٍ من أوجه الالتزام الجدّيّ، الذي اعتنى الرسول بولس بأن يعمله ويعلّمه، ونعني قوله: «صوم كثير» (٢كورنثوس ١١: ٢٧؛ أنظر أيضًا: أعمال الرسل ١٣: ٣، ١٤: ٢٣؛ ١كورنثوس ٧: ٥؛ ٢كورنثوس ٦: ٥).

لا يشكّ مطّلع في أنّ الرسول كان يعرف أنّ العهد القديم، وهو الكتاب الذي نشأ عليه قَبْلَ تنصّره (أعمال الرسل ٢٢: ٣)، يذخر بالتأكيدات التي تطلب ممارسة الصوم. فاليهود الأتقياء كانوا يمارسون الأصوام الطقسيّة (أحبار ١٦: ٢٩، ٢٣: ٢٧). وفرض بعضهم، الفرّيسيّون مثلاً، على أنفسهم أصوامًا طوعيّة (لوقا ١٨: ٩- ١٣). ومن الأصوام الشهيرة التي، من دون ريب، أثّرت في قناعته وممارسته وتعليمه: صوم موسى (خروج ٢٤: ١٨)؛ وصوم داود (٢صموئيل ١: ١٢، ١٢: ١٦)؛ وصوم إيليّا (١ملوك ١٩: ٨)؛ وصوم أستير (٤: ١٦)؛ وصوم دانيال (٩: ٣)؛ وصوم أهل نينوى الذين تابوا بمناداة يونان (٣: ٥- ١٠)؛ وغيرها. وممّا صقل قلبَهُ تذكيرُ الأنبياء بحقّ الصوم ولزومه، وإدانتهم كلّ تشويه ومخالفة لا يليقان بقواعده وأهدافه (أشعيا ٥٨: ١- ١٢؛ إرميا ١٤: ١٢؛ زكريّا ٧: ٥). ولقد عرف، بعد تنصّره، أنّ الربّ يسوع نفسه صام أربعين يومًا (متّى ٤: ٢)؛ وأنّه أوصى بالصوم نهجًا بعد ارتفاعه (متّى ٩: ١٤ و١٥ وما يوازيه)؛ وأنّه جعله فرصةً للمجازاة (متّى ٦: ١٦- ١٨).

السؤال، الذي يطرح ذاته، هو: ماذا يعني الرسول بقوله «صوم كثير»؟ أو هل من إمكان أن نعرف ما هو الشكل الحقيقيّ لهذا الصوم، أو ما هي طريقة تنفيذه؟

ما يبدو أكيدًا أنّ الصوم، في زمن الرسول، كان يعني الانقطاع الكلّيّ عن الطعام ليوم واحد، أو لأيّام عدّة. الامتناع عن اللحم (الذي كان قديمًا طعام الأغنياء) ومنتوجه ثبت في أزمنة لاحقة (أنظر: مجمع اللاذقيّة، القرن الرابع، القانون ٥٠؛ ومجمع ترولّو، العام ٦٩٢، القانون ٥٦). ومعروف أنّ المسيحيّين، كما حدّد كتاب «أوامر الرسل» (نحو العام ٤٠٠)، تعوّدوا أن يأكلوا وجبةً نباتيّةً واحدةً، الساعة الثالثة بعد الظهر، أو عند المساء. ومن آثار هذه الممارسة أنّ المؤمنين، في أيّامنا، لا يفطرون، ولا سيّما في زمن الصوم الكبير، طيلة فترة ما قَبْلَ الظهر.

هذا التبسيط السريع يطرح سؤالاً أنشأه غيرنا، وأخذ بعضنا يردّده، وهو: ما هي شرعيّة الصوم، بتطوّره المذكور، إن كان العهد الجديد لم يذكره حرفيًّا؟ ومعروف أنّ معنى هذا السؤال أنّ الصوم، كما تقضي الكنيسة ممارسته، هو «اختراع» لا ضرورة له في سياق طاعة الله والتماس خلاصه. وعلى هذا المعنى البارد لنا ردّ واجب.

لا يخفى أنّ همّ الكنيسة الأساس، في غير عصر، هو بناء المؤمنين ونموّهم وقداستهم. وهذا مستنده الأوّل، عندها، كشوف الله المبيّنة في الكتب. فالكنيسة، في كلّ ما قالته وعلّمته، والصوم من ضمنه، لم تزد على المكتوب الذي تقرأه، وتفسّره، على ضوء تراثها الحيّ. غير أنّ سؤال

المنشئين والمردّدين يفترض سؤالاً يقابله، وهو: ما هو، في الواقع، تعريف الكتب المقدّسة؟ ولنا ردّان على سؤالنا. الأوّل أنّ الكتب ليست حروفًا وكلمات فحسب، بل إنّما هي «روح وحياة» (يوحنّا ٦: ٦٣). ومعنى ذلك أنّ ما قاله الربّ، في كلّ التاريخ الخلاصيّ، وضمنًا ما جاء على ألسنة رسله، في شأن الصوم وغيره، لا يمنع التفسير الشرعيّ الذي خلصت إليه الكنيسة، أو رسمته، ومارسته بشغف وإخلاص دائمَيْن. فالكتاب «روح وحياة»، أي أنّ ما يتضمّنه أوسع من حروفه. والردّ الثاني يشبه الأوّل، ويكشف عمقه، وهو أنّ العهد الجديد، عند الأوّلين، لم يكن كتابًا حصرًا، بل هو، أوّلاً، شخص يسوع المسيح الربّ المحيي. ومن ردودهم على التعاليم الخاطئة التي حدّت ذاتها بحروف الكتب، نقرأ، مثلاً، ما قاله القدّيس إغناطيوس الأنطاكيّ (+١٠٧): «أضرع إليكم أن تبتعدوا عن كلّ روح يعمل للشقاقات، وأن تفعلوا وفقًا لتعليم الله. سمعت مَنْ يقول: «إذا لم أجد ذلك عند الأقدمين، لا أومن بالإنجيل»، وعندما أقول لهم إنّ ذلك «مكتوب»، يجيبونني: «هذا هو الموضوع». المخطوطات بالنسبة إليَّ هو يسوع المسيح، المخطوطات هي صليبه وموته وقيامته والإيمان الذي من عنده» (الرسالة إلى فيلادلفيا ٨: ٢). وهذا التأكيد الراضي من معانيه أنّ الكنيسة، التي استلمت الكتب ومعانيها، تقدر، في قراءتها وبسطها، على أن تبني على شخص الابن وعمله الخلاصيّ، أو رؤيته العامّة. فإذا كان السيّد نفسه قد صام و«افتقر لأجلنا» (٢كورنثوس ٨: ٩)، وعلّم أتباعه أن «يطلبوا أوّلاً ملكوت الله وبرّه» (متّى ٦: ٤٤) الذي ليس «أكلاً وشرابًا» (رومية ١٤:

١٧)، فهذا يسمح لها، بنعمة الروح الساكن فيها وإرشاده (يوحنّا ١٦: ١٣)، بأن تبني عليه.

حتّى لا ننسى بولس وصومه الكثير، أي حتّى لا نهمل المنفعة التي يكشفها قوله، لا بدّ من التأكيد أنّ الرسول، الذي كلّفه الربّ أن يحمل البشارة السارّة إلى العالم كلّه، لم يهمل، على مسؤوليّاته الجمّة (٢كورنثوس ١١: ٢٨)، هذا الفقر الطوعيّ الذي يمثّله قوله المذكور، أي لم يقبل أن يعذر نفسه ويبرّرها، أو يغرق في الدنيا وملذّاتها. قوله يجعلنا واثقين بأنّه لم يرتضِ أن يفوته لحظةً، وهو الغنيّ بمواهبه، أنّه فقير إلى الله. هل شعر بأنّ الصوم الكثير، الذي استساغه وأرادنا أن نستسيغه، تعبير عن أنّه يريد من الله أن يعمل ما طلبه منه؟ هذا هو حال الفقراء الذين يطيعون الله أبدًا.

«صوم كثير»، ليس من التزام صحيح يتجاوز هذه الممارسة التي التزمها الرسول، وأوصى بها. وهذا يجب أن ننتهجه، بعون الله، ما استطعنا، ولا سيّما كلّما هلّ صوم من أصوامنا، لنقدر على محاكاة تراثنا، ونختبر، بواقعيّة، الفقر المعروض علينا، لا حبًّا بالفقر، بل حبًّا بِمَنْ «افتقر لأجلنا».

المساواة

يلفت علماء التفسير، قديمه وحديثه، أنّ الرسول بولس، الذي كتب رسالته الثانية إلى كنيسة كورنثوس دفاعًا عن خدمته الرسوليّة، خصّص الإصحاحين الثامن والتاسع منها، ليحثّ المؤمنين على مساعدة الإخوة المحتاجين، ولا سيّما فقراء كنيسة أورشليم (رومية ١٥: ٢٥- ٢٨؛ ١كورنثوس ١٦: ١- ٣؛ غلاطية ٢: ١٠)، الذين، بسبب تركهم الديانة القديمة وقبولهم يسوع ربًّا ومخلّصًا، خسروا وظائفهم، وعانوا كلّ أنواع الفاقة والعوز.

لن ننقل كلّ ما يتضمّنه هذان الإصحاحان المذكوران. فما يعنينا، الآن، هو هذه اللفظة المعبّرة التي استعملها الرسول، ليدعم حجّته في حثّه المؤمنين على عون إخوتهم المحتاجين والناس جميعًا، وأعني بها «المساواة». وهذه اللفظة تظهر في قوله: «فليس المراد أن يكون الآخرون في يسر، وتكونوا أنتم في عسر، بل المراد هو المساواة. فإذا سدّت اليوم سعتكم ما بهم من عوز، سدّت سعتهم عوزكم في المستقبل، فحصلت المساواة» (٨: ١٣ و١٤).

هذا الكلام الرسوليّ يبسط، بوضوح كلّيّ، معنى العضد الأخويّ وهدفه في آنٍ واحد. فبولس لا يطلب من قرّائه الأوّلين، (ومنّا جميعًا)، أن يفتقر أحد ويغتني آخر، بل المساواة. وهذه، في قوله، تعني أمرين. الأوّل أن يساوي المؤمنون المقتدرون أنفسهم بِمَنْ أفقرتهم الدنيا، أو ظروف حياتهم،

أي أن يريدوا لإخوتهم الفقراء، بالفعل، ما يريدونه لأنفسهم، فيمدّونهم بكلّ ما يحتاجون إليه. وهذا يفترض، عمليًّا، أن يحسب المقتدرون أنّ المحتاجين، الذين يتقاسمون معهم الخيرات الأزليّة في حياة الكنيسة، هم شركاؤهم في الخيرات الأرضيّة أيضًا (أنظر: تعليم الرسل الاثني عشر ٤: ٨). وأمّا الأمر الثاني، فيظهر في دعوة الرسول الفقراء إلى أن يبادروا، متى سدّت سعة المقتدرين عوزهم أو تحسّن وضعهم المادّيّ، إلى أن يساعدوا، هم أيضًا، كلّ أخ افتقر، أو كان فقيرًا أصلاً.

لا يطلب بولس، إذًا، عونًا من أحد مقتدر لأحد غير مقتدر حتّى يبقى، إلى الأبد، المعطي معطيًا والآخذ آخذًا. فالعطاء سند تفترضه حاجة كلّ أخ محتاج، ليتقوّى، ويحيا بكرامة أبناء الله، ويقدر، بدوره، على اختبار بركات العضد. أجل، فمسيحيّة الربّ المتجسّد ليست بلاغتها في الكلام فحسب، بل في التصرّف أيضًا. العطاء تصرّف يدلّ على الفهم ببلاغة لا تشبهها بلاغة. والفهم الكامل أن يعرف كلّ مؤمن أنّه عضو في عائلة الله الآب التي تضمّ إخوةً كثيرين (رومية ٨: ٢٩). وهذا الفهم الملزم هو الأساس الجوهريّ لكلّ مقتضيات الالتزام. ومن أولى هذه المقتضيات القيام بفعل الخير الذي لا تؤسّسه، في الفكر المسيحيّ، العواطف والمشاعر البشريّة (على أهمّيّتها)، بل الوعي أنّنا جميعًا «من أهل بيت الله» (أفسس ٢: ١٩)، أو أعضاء في كنيسة روحه الكونيّة. وهذا أمر لا يوازيه، في الأرض، ترابط مجرّد، أو فلسفة، أو أيديولوجيّة. إذ ما من ترابط أو فكر أو معتقد، خارج المسيحيّة، يحاكي تدبير الله الذي فدى البشريّة بدم وحيده، وأعتقها

من حدود اللون واللغة والثقافة والمذهب والطائفة (غلاطية ٣: ٢٨؛ أفسس ٢: ١٣؛ كولوسّي ٣: ١١).

أمّا المعطون بسخاء، فلا يقتصر قيامهم بهذه الخدمة، كما يقول بولس أيضًا، على «سدّ حاجات القدّيسين»، وهم الفقراء كما ذكرنا، «بل يفيض، أيضًا، شكرًا جزيلاً لله» (٢كورنثوس ٩: ١٢). وهذا، موضوعيًّا، يأبى أن يحيا الإنسان لنفسه (لوقا ١٢: ١٩)، أو أن يحابي الوجوه (يعقوب ١: ١٦)، ويأبى، تاليًا، أن يكون كلّ عطاء محدودًا أو عابرًا، أو هدفُهُ شكرَ بشرٍ. فالعطاء المطلوب قوامه أن يتجاوز المعطي نفسه وأقرباءه بالجسد، وينفتح على جميع الذين تبنّاهم الله، ويتعهّد حاجاتهم تعهّدًا كلّيًّا، ليقدروا على أن «يمجّدوا الله على طاعتكم (طاعة الذين ساعدوهم) في الشهادة ببشارة المسيح وعلى سخائكم في إشراكهم في أموالكم وإشراك جميع الناس فيها». وما يمكن استنتاجه من قول الرسول أنّ الشكر لله لا يرفعه الآخذ فحسب، بل المعطي والآخذ في آنٍ واحد. بمعنى أن يعرف المعطي أنّ الله هو الذي منّ عليه بأن يعطي، وأن يعرف الآخذ، أيضًا، أنّ الله هو الذي «أوجد مَنْ يسدّ له عوزه» (أنظر: رسالة اقليمس الأولى إلى أهل كورنثوس ٣٨: ٢). وهذا له سنده في قول الربّ: «والفقراء يبشّرون» (لوقا ٧: ٢٢). فالربّ، الذي جاء وأحيانا بموته وقيامته من كلّ موت (الجوع والجهل والمرض وما إليها)، يريد أن تبقى حياته تسودنا، أي أن تحكم بشارته حياتنا كلّها. وهذا يلزم المعطي ألاّ يفكّر في مساعدة فقير قَبْلَ أن يكون قد اقتنع بأنّ الربّ هو المحيي، أي هو محييه أوّلاً. ويلزم، تاليًا، الفقير ألاّ يقبل أيّ

مساعدة لا تقول حياة الله، أي لا تستدعي شكره، وحده، «على عطائه الذي لا يوصف». فالشكر هو، في الأخير، شكر لله أنّ حياته ما زالت تفعل في مَنْ أحياهم، ليحيوا (أنظر: ٢كورنثوس ٩: ١٠– ١٥).

ما أثاره الرسول، بقوله، يتحدّانا نحن الذين آمنّا بيسوع، وقبلنا الانضمام إلى عائلة أبيه. فَمَنْ قطع دفاعه عن رسوليّته، وهي من أسس الإيمان عندنا، ليذكّر بواجب العطاء ومنافعه، إنّما فعل ذلك لإيمانه بأنّ العطاء هو من أسس الإيمان أيضًا. ويبقى أن نحفظ هذا القول بجدّيّة ظاهرة، أي أن نغتني بفقر مَنْ ساوانا بنفسه (٢كورنثوس ٨: ٩)، لنساوي الآخرين بأنفسنا، ونكنز «للمستقبل (لليوم الأخير) ذخرًا ثابتًا» (١تيموثاوس ٦: ١٩).

في مجاهدة الخطيئة

بعد أن كلّم كاتب الرسالة إلى العبرانيّين قرّاءه على إيمان الأجداد، ليكونوا لهم عبرةً في مسيرة جهادهم (الإصحاح الـ١١)، حثّهم على التحديق إلى «مبدئ إيماننا ومتمّمه، يسوع الذي، في سبيل الفرح المعروض عليه، تحمّل الصليب مستخفًّا بالعار، ثمّ جلس عن يمين عرش الله» (١٢: ٢). ودعاهم إلى أن يفكّروا في تحمّله «ما لقي من مخالفة الخاطئين، لكيلا تخور هممُكم بضعف نفوسكم» (١٢: ٣). ثمّ تابع كلامه بقوله لهم: «فإنّكم لم تقاوموا، حتّى بذل الدم، في مجاهدة الخطيئة» (١٢: ٤).

لا بدّ من القول، بدءًا، إنّ الرسالة إلى العبرانيّين عظة بليغة في محبّة الله. هذه الآيات الثلاث، التي سنحاول أن نستعرض معناها، تكشف لنا، بوضوح، عمق هذه المحبّة وما يستوجبه حقّها، لنتحرّر، بنعمة الله، من كلّ تقاعس، ونتبنّى ما يعبّد درب نجاتنا.

مرتكز هذه الآيات الثلاث هو حثّ الرسول قرّاءه المؤمنين، وحثّنا نحن أيضًا، على التحديق إلى وجه يسوع.

ربّما لا نفكّر، جدّيًّا، في أهمّيّة هذا الحثّ. فنحن، عمومًا، نعتبر أنّ المسيحيّة هي، حصرًا، تعاليم ونظم وفنون وأدعية ونسك ولقاءات وأنشطة... وهذا الاعتبار صحيح، أو يكون صحيحًا، إن التزمنا قول الرسول، وثبّتنا النظر إلى وجه يسوع الدامي والغالب في آنٍ. فَمِنْ تثبيت النظر إلى وجه يسوع، والتفكير في ما جرى له من أجل خلاصنا، ينبع كلّ

التزام مطلوب. وذلك لأنّ يسوع هو، وحده، «مبدئ الإيمان ومتمّمه»، أي لأنّه هو الذي أرضى أباه في كلّ ما قال وعمل، ولأنّه القادر على أن ينشئ فينا هذا الرضاء، ويتمّمه.

هل تأثّر كاتب هذه الرسالة، في ما قاله، بحادثة سير بطرس على الماء (متّى ١٤: ٢٢- ٣٣)؟ ليس من دليل على ذلك. لكن، لمَ لا يكون قد تأثّر. فهذه الحادثة تعبّر خير تعبير عمّا قاله الرسول هنا. فبطرس طلب إلى يسوع، الذي أتى إلى تلاميذه ماشيًا على البحر في آخر هزيع من الليل، أن يأتي إليه. وقدر، هو أيضًا، على أن يمشي على الماء، بعد أن دعاه معلّمه. «ولكنّه خاف عندما رأى شدّة الريح، فأخذ يغرق». والريح «لا يراها أحد، ولكنّه يسمعها» (المطران جورج (خضر)، رعيّتي ٢٠٠٤/٣١). وهذا إنّما يعني أنّ بطرس غرق بعد أن حاد نظره عن وجه مَنْ قال له «تعال». والمعروف أنّ الماء صورة للعالم، الذي يريد أن يخنقنا «في كثافة الخطيئة الرطبة» (أوليفييه كليمان، نشيد الدموع، صفحة ٤٥)، والذي لا يطأه المؤمن بقدرته، بل بقدرة يسوع، أي بالتحديق إلى وجهه والاتّكال على يده الممدودة إلينا في كلّ وقت.

هذه هي قوّتنا، «لكيلا تخور هممنا بضعف نفوسنا». فَمَنْ لا يحدّق إلى وجه يسوع، تضعفْ نفسه، وتَخُرْ همّته. يسوع، أو الإيمان به غالبًا، أي «جالسًا عن يمين عرش الله»، هو دعم كلّ همّة بارّة تبتغي القداسة في حيّز هذا الوجود. إذ لا يؤسِّس الإنسان الواعي جهاده على ذاته وقدرته. فَمَنْ لم يملأ قلبه، أي كيانه كلّه، قَبْلاً، من وجه يسوع والتفكير الدائم في

إتمامه «التدبير الذي من أجلنا»، لا يقدر على أن يجاهد. يضعف، يتعب، يخور، يسقط. ومهما عمل، لا ينفعه عمله شيئًا.

لا تجاهد الخطيئة مجاهدةً شرعيّةً إلاّ إذا كان وجه يسوع المنتصر والممجّد يملأ عيوننا ووجوهنا. وهذا يلزمنا أن نتمثّل به، أي باستخفافه بالعار طاعةً لأبيه. فيسوع لم يمنعه شيء، ولا موته على الصليب، من طاعة أبيه. ولقد رسم لنا، بطاعته الطوعيّة، أنّ كلّ مجاهدة ناقصة لا تنفع شيئًا، وأنّ المجاهدة المطلوبة هي التي تحاكي بذله من دون تهاون أو مساومة. هذا ما دفع الرسول إلى القول: «فإنّكم لم تقاوموا، حتّى بذل الدم، في مجاهدة الخطيئة». فالمسيح قاوم، حتّى بذل الدم. وهذه هي دعوتنا التي قبلناها. أن نترك «الخطيئة تساورنا»، وندّعي أنّنا نجاهد، نتوهّم أنّنا نجاهد. وأن نحاول المجاهدة، ونخون عند أوّل تجربة، لا يعني أنّنا مجاهدون بواسل. مجاهدة الخطيئة تفترض أمانةً كلّيّةً (رؤيا يوحنّا ٢: ١٠)، أي أن نموت عن الخطيئة «كلّ يوم» (لوقا ٩: ٢٣)، أو أن نُذبح، إذا دعت الحاجة، كما ذُبح الشهداء حبًّا بيسوع وإخلاصًا لاسمه ووجهه المنوَّر.

أن نموت عن الخطيئة كلّ يوم، يعني أن نجاهد، دائمًا، بوعي وثبات وثقة كلّيّة بالربّ الذي يرانا، ويعضدنا، ويفرح بنا. فالشرّير من خواصّه أنّه يُجهِد، أي يجدّ في عداوته. ومجاهدته تفترض بذلاً كبيرًا وتنبّهًا دقيقًا له ولحيله. وَمَنْ لا يبذلْ قُصارى مجهوده في اتّكاله على الربّ، لا يستطعْ حيال الشرّير شيئًا. وجهد المؤمن ركيزته مبيّنة في قول الرسول. فإذا رأى عدوّنا أنّ عيوننا مخطوفة إلى وجه سيّدنا الفادي، يعرف أنّه، مهما أجهد،

لن يقوى علينا، وأنّ نصرنا، بعون مَنْ نراه ويرانا، قريب، أو حاصل. فالنظر تقابل، أي مَنْ تحدّق إلى وجهه هو يحدّق إليك أيضًا (وهذا ما نلمسه في فنّ الأيقونة عندنا). ومن معاني تحديقك أنّك تؤمن بوجود مَنْ تحدّق إليه وبفعله، وبأنّك واثق بأنّه لن يتركك في صراعك طويلاً، أي أنّه سـ«يؤتيك مع التجربة وسيلة الخروج منها بالقدرة على تحمّلها» (١كورنثوس ١٠: ١٣). فالتحديق نوع من اللجوء، أو الطلب الواثق أن يأتي إليك مَنْ تحدّق إليه، ويكمل الجهاد عنك وفيك.

ما قاله الرسول، في هذه الآيات الثلاث، مرتكز جهاد كلّ مؤمن ونصره وثباته. فالربّ، الذي يحتفّ به جميع الذين تجمّلوا بفضائله وعونه في كلّ جيل، يريد أن يغلب فينا. هو ينتظر أن نشارك القدّيسين، منذ الآن، في التمتّع برؤية وجهه المحبّ والمنقذ. فلننظر إلى وجهه بشوق وثقة. فلننظر إليه، دائمًا، ولا سيّما في أوقات الفوضى والتجارب التي تضربنا، لنتعلّم أصول مجاهدة الخطيئة، ونختبر عونه ونصره، ونُعطى، نحن أيضًا، أن «نجلس معه على عرشه» (رؤيا يوحنّا ٣: ٢١)، ونثبت في فرح مقيم.

الإصلاح الأخويّ

الكلام على الإصلاح الأخويّ قاعدتُهُ، في العهد الجديد، وصيّة الربّ العظمى (المحبّة). فمن مظاهر المحبّة أن تريد أخاك مصلَحًا، أي يحيا في استقامة المسيح.

الآيات الإنجيليّة، التي تعبّر عن ضرورة الإصلاح الأخويّ وتطلبه، هي عديدة (أنظر مثلاً: متّى ١٨: ١٥- ١٧؛ ٢كورنثوس ١٣: ١١؛ ٢تسالونيكي ٣: ١٤- ١٥؛ ٢تيموثاوس ٢: ٢٤- ٢٦؛ يعقوب ٥: ١٩). سنختار، لتأمّلنا، قولة بولس: «إن وقع أحد في فخّ الخطيئة، فأصلحوه أنتم الروحيّين بروح الوداعة. وحذارِ أنت من نفسك، لئلاّ تجرّب أنت أيضًا» (غلاطية ٦: ١).

ما يلفت، بدءًا، في هذه الآية المختارة، أنّ الرسول يسمّي الذين يُنتظر منهم عمل الإصلاح، «الروحيّين». ويريد، بهذه اللفظة، المؤمنين الذين يحيون ببركات الروح القدس وفعله فيهم. وهذا، في الحقيقة، شرط أساس لكلّ محاولة إصلاح في الجماعة. فالربّ ينتظر من أعضاء الكنيسة المختبَرين والمختبِرين أن يحاولوا أن يساعدوا كلّ أخ فتنه شرّ إبليس، وجار عن طريق الحقّ، ويعملوا على ردّه إلى جادّة الصواب. وينتظر، تاليًا، أن يرتضي الأخ المفتون كلّ محاولة صالحة تحثّه على استعادة وعيه، وما تفترضه هذه الاستعادة من توبة صادقة وتجديد حقيقيّ للذات. والروحيّ يتميّز عن غيره بأنّه، إذا عمل عملاً ما، لا يطلب مجد نفسه أو مجدًا من

أحد، بل مجد الله وحده. ولذلك يبقى هو، وحده، ضرورةً من ضرورات الحياة الجماعيّة ودوام استقامتها.

إذًا، يقول بولس: «إن وقع أحد في فخّ الخطيئة»، ويقصد، تحديدًا، أحد الإخوة أعضاء الكنيسة. فهو، بكلامه، يوحي، أو يدلّ على أنّ الخطيئة ممكن أن تغلب أحد أعضاء الجماعة. وذلك بأنّ الذين ينخرطون في حياة كنيستهم، ويتابعون صلواتها وتعاليمها ونشاطاتها، ربّما لا يأخذ جميعهم موقفًا جدّيًّا من العالم وشروره. فقد يبقى بعضهم «يعرج بين الجانبين». الكنيسة أبوابها مفتوحة، ويدخلها الناس من كلّ نوع. ولا يرى الرسول أنّ الداخلين، ولو التزموا ظاهريًّا، سيحيون جملةً بالبرّ، أو سيخلصون للمسيح ربّنا إخلاصًا لا يشوبه عيب. قد يقع أحدهم. فللخطيئة فخاخها. وربّما لا يثب الجميع منها، أي ربّما لا يتوبون توبةً حقيقيّة. ويحيون في الجماعة ومعها، وقلوبهم تبقى تضجّ بأفكار الدنيا، وتستحلي وحل الأرض.

غير أنّ الرسول ينتظر، دائمًا، أن يعامل المؤمنون بعضهم بعضًا معاملةً صالحةً، أو مُصلحةً، أي أن يحاولوا، على كلّ صعوبة، أن يكشفوا لكلّ أخ سقط في زلّة، بمحبّة ظاهرة، خطيئة تجاوزه على ضوء كلمة الله وخبرة البرّ. وليس هذا الكشف هدفه أن يحافظ المؤمنون بعضهم على صداقة بعض، بل أن يعود الضالّ إلى حضن الجماعة، لئلاّ يخسر عضويّته في جسد المسيح. فالإصلاح لا يكون حقيقيًّا ما لم يؤسَّس على الله وكلمته التي تفضح كلّ عيب وخلل، وتشفي الذين يطيعونها من كلّ زلل. وهذا

يعني أنّ الإصلاح عمل لا يقبل المسايرة، ولا يعتمد الغنج. الإصلاح جدّيّ. لأنّ الخطيئة جدّيّة. ولو أنّ جدّيّته لا تمنع الطراوة، أو «روح الوداعة» التي أوصى بها الرسول بقوله.

لماذا طلب الوداعة واجب في سياق عمل الإصلاح الأخويّ؟ قَبْلَ الجواب عن هذا السؤال، لا بدّ من التذكير بأنّ الرسول، لمّا قال للحارّين بالروح «أصلحوا (الواقع) بروح الوداعة»، أضاف توًّا: «وحذارِ أنت من نفسك، لئلاّ تجرّب أنت أيضًا». وهذان القولان، معًا، يدلاّننا على الجواب. فَمَنْ يحاول إصلاح غيره، أشخصًا كان المصلِحُ أم مجموعة أشخاص، ممنوع عليه أن يوحي، أو أن يرى نفسه في عينيه أو عيون الله والإخوة، أنّه أهمّ من الأخ الواقع. صحيح أنّ البرّ هو، دائمًا، أفضل من الخطأ والخطيئة. ولكنّ الصحيح، أيضًا، أنّ مَنْ حاز «روح الوداعة» لا تكون حيازته واقعيّةً، إن لم يبيّن، في أقواله وتصرّفاته، وعيه الفعليّ أنّ الله هو الذي يدين الناس. الوداعة من خواصّها المربّية أنّها الفضيلة الصريحة التي تدلّ على أنّ الله الحكم الأخير، وأنّنا جميعًا تحت قضائه. ولذلك حذّر بولس الأخ المصلِح من نفسه، لئلاّ يجرّب هو أيضًا. وهذا الكلام لا يراد به، فقط، أن يتعلَّم من أخطاء غيره، وما تسبّبه الخطيئة من ضرّ ومرارة، بل، أيضًا، أن يذكر، في قلبه، وهو يقوم بعمل الصلح، وفي غير حال، أنّ الله هو ديّان العالمين، وأنّ مَنْ يحسب أنّه واقف من الممكن أن يسقط (١كورنثوس ١٠: ١٢). فإبليس لا يترك أحدًا من دون أن يحاول إسقاطه. ليس بمعنى أنّه قادر على تطويع المؤمنين، أو إخضاعهم لشروره، من دون إرادتهم، بل أنّ تجاربه

واردة دائمًا، وأنّها لا تقهر بالكلام، بل بالفضائل المنجّية. والفضيلة، التي تقضي على «رئيس هذا الجيل»، بمنطق الرسول هنا، هي الوداعة (قابل مع: رسالة القدّيس إغناطيوس إلى أهل تراليان ٤: ٢).

الحياة في الكنيسة قوامها محبّة الله والإخوة. والمحبّة، التي قال فيها الرسول إنّها «لا تسقط» (١كورنثوس ١٣: ٨)، يجب أن تظهر بقوّة، ولا سيّما إذا ضعف أحد الإخوة، أو سقط في زلّة، وأن تبقى ثابتةً، حتّى لو رفض أن يسمع إخوته، ويقبل إصلاحهم. وهذا ما أوحى بإمكان حدوثه الربُّ نفسُهُ (متّى ١٨: ١٥- ١٧). ويجب أن نذكر أنّ قبول الإصلاح، أو رفضه، حقّ من حقوق كلّ أخ. وأن نذكر، تاليًا، أنّه، في حال رفضه الإصلاح، من حقوقه علينا أن نبقى نحاول عونه، ونحمله في أدعيتنا دائمًا (٢كورنثوس ١٣: ٩). فهذا دليل آخر على وداعتنا وثقتنا بأنّ لله سبله في رعاية الناس، حتّى «لا يفنى إيمان أحد».

نير العبوديّة

مَنْ يقرأ المواقع التي تكلّم فيها بولس على العبوديّة، لا يشكّ في أنّه لم يكتب بحثًا قانونيًا، أو اجتماعيًّا، عن العبوديّة أو الحرّيّة (أنظر: ١كورنثوس ٧: ٢١- ٢٤؛ غلاطية ٣: ٢٨؛ أفسس ٦: ٥- ٩؛ كولوسّي ٣: ١١ و٢٢- ٢٥؛ ١تيموثاوس ٦: ١ و٢؛ طيطس ٢: ٩ و١٠؛ والرسالة إلى فيلمون). فهذه النصوص لا تسمح لنا بأن نفكّر في أنّ الرسول لم يعترض على العبوديّة، أو أنّه يؤيّد الخلل الاجتماعيّ السائد في عصره، أو يوافق على القوانين المدنيّة المجحفة التي تحتقر العبيد، وتطلب، في بعض الأحيان، قتلهم، أو رميهم للوحوش في حلبات المصارعة (مثلاً، إذا هرب أحدهم من منزل سيّده). فحجم الآيات التي، بالتأكيد، تبيّن اهتمام بولس بعلاقة العبيد وأسيادهم، يمنعنا من هذا النوع من التفكير. وإذا قرأنا هذه النصوص بإمعان، لا يخفى علينا أنّ الرسول، فيما يتعاطى الموجود، كان يدين كلّ ممارسة، أو قانون، يحتقر الناس، وينسي أنّهم عبيد للمسيح الذي حرّر العالم بدمه. وما يعنيه، في كلّ حال، أن يحيا المؤمنون، معًا، على أساس أنّهم إخوة وأحبّاء، ويستعمل كلّ منهم موقعه، ليشهد لمجد الله وحده.

سنحاول، في هذه السطور، أن نركن إلى ما جاء في رسالة بولس الأولى إلى تلميذه تيموثاوس، لنتبيّن معناه وإفادته لنا. نقرأ: «على جميع الذين هم في نير العبوديّة أن يحسبوا سادتهم أهلاً للإكرام التامّ، لئلاّ يجدّف على اسم الله وعلى العقيدة. أمّا الذين لهم سادة مؤمنون، فلا يستهينوا

بهم لأنّهم إخوة، بل عليهم أن يزيدوهم خدمةً لأنّ الذين يستفيدون من إحسانهم مؤمنون وأحبّاء» (٦: ١ و٢).

ما يلفت، في الآية الأولى، أنّها تسمّي العبوديّة نيرًا. وهذه اللفظة استعملها الربّ، في إنجيل متّى، لمّا قال: «احملوا نيري» (١١: ٢٩ و٣٠). ومن معاني النير أنّه الخشبة المعترضة في عُنُقَيْ الثورين بأداتها (أنظر مثلاً: تثنية الاشتراع ٢١: ٣). وهذه اللفظة، التي أخذها يسوع من العالم الزراعيّ، يراد بها أنّ التلميذ يتّكل على معلّمه الذي يواكبه، ويعينه (يحمل عنه ثقله)، في مسيرة جهاده. والنير صورة معروفة في العهد القديم (أشعيا ١٠: ٢٧، ٥٨: ٦ و٩؛ إرميا ٢: ٢٠، ٥: ٥، ٢٧: ٢، ٢٨: ١٠ و١١؛ هوشع ١٠: ١١). وترمز، ممّا ترمز، إلى شريعة الله المكتوبة والشفويّة (سيراخ ٦: ٢٤- ٣٠، ٥١: ٢٦). ولربّما هذا ما عناه السيّد، إذ استتبع ما طلبه بقوله: «وتتلمذوا لي». ولكنّ النير، في أحيان كثيرة، ثقيل ومؤلم (تكوين ٢٧: ٤٠؛ أحبار ٢٦: ١٣؛ تثنية الاشتراع ٢٨: ٤٨؛ ١ملوك ١٢: ٩؛ أنظر أيضًا: أعمال الرسل ١٥: ١٠). وهذا ما قصده الرسول في قوله. فالعبوديّة نير، بمعنى أنّ العبد غالبًا ما يتعرّض للقهر والذلّ والإهانة. وما يريده الرسول أن يحترم العبدُ المسيحيُّ سيّدَهُ، ويكرمه في كلّ حال، حتّى لا يجدّف على اسم الله وتعاليمه الملزمة. هذا، كما بيّنا، لا يعني أنّ بولس يؤيّد الظلم والقهر، بل يجعل من صبر العبيد فرصةً لاهتداء أسيادهم غير المؤمنين. فالأسياد، الذين لم يعتنقوا المسيحيّة، يمكن أن ينسبوا أخطاء عبيدهم إلى إلههم، فيجدّفوا عليه، أو يقولوا إنّ تعاليمهم تنادي بالسوء والكسل.

ولذلك رأى بولس أنّ العبيد ملزمون أن يحترموا الناس جميعًا، ولا سيّما أسيادهم، وأن يكونوا أمينين في تصرّفاتهم وخدمتهم اليوميّة، على رجاء أن يتلقّى الأسياد سلوكهم شهادةً لإلههم، وينتفعوا (متّى ٥: ١٦؛ ١بطرس ٣: ١ و٢).

في الآية الثانية، يوصي بولس العبيد بألاّ يستهينوا بأسيادهم المؤمنين «لأنّهم إخوة». وهذا يعني أنّ العبد، إذا كان سيّده مؤمنًا بخلاص مسيحه، قد يشعر بدالّة، ويستهين به وبخدمته. بولس ينبّه العبد بألاّ يستغلّ إيمان السيّد الأخ، بل أن يحبّه، ويزيد اجتهادًا في خدمته. واللافت أنّ الرسول يسمّي، هنا، خدمة العبد لسيّده المؤمن «إحسانًا»، أي عونًا. وهذا ينفع العبد والسيّد في آن. فالعبد من واجبه أن يعين سيّده في خدمة طيّبة، ومن واجبات السيّد المؤمن أن يرى عبده نافعًا له ومعينًا في كلّ شيء.

أهمّيّة هاتين الآيتين أنّ الرسول جعل فيهما الناس «العاديّين» خدّامًا لإلههم في مواقعهم، ليصطادوا البعيدين بسلوك طيّب. فكلّ إنسان، إن كان أمينًا لله، هو، في مفهومه، مفيد لغيره. ويحلو لي، هنا، أن أذكر أنّني سمعت سيّدًا وجيهًا يقول مرّةً: «إنّي لا أقدر على أن أستغني عن خادمتي (وهي فتاة مسيحيّة)، لأنّها كثيرًا ما تذكّرني بحقّ الله». وروى: أنّها رفضت، مرّةً، أن يطرد فتاةً من بلدها لجأت، في إحدى الليالي، إلى منزله هربًا من ظلم مستخدميها، وحضّته على استضافتها يومًا، ليساعدها في الغد، وحجّتها أنّ الربّ أوصى بالمطرودين والمظلومين، وأنّه شبّه نفسه بهم. وهذا ما أكّدته أخته المريضة بقولها: «إنّني تعلّمت إنجيل الربّ على

هذه الفتاة». فما يعني الرسول، إذًا، ليست مكانة الإنسان الاجتماعيّة، بل ما يفعله مساهمةً في مدّ خلاص الله في هذا الوجود. ففي الخدمة الراضية والأمينة، يقول الإنسان انتسابه إلى إلهه. المهمّ ألاّ يستغلّ المستخدم طيبة سيّده، ويهمل خدمته. والمهمّ أيضًا، أو أكثر، ألاّ يحتقر السيّد مَنْ كان أدنى منه مكانةً برأي العالم، ويستغلّه، ويظلمه. فالمؤمنون، الذين تبنّاهم الربّ لأبيه، مهما كان وضعهم الاجتماعيّ، هم إخوة. وفي هذا مجد كلّ إنسان وفخره. المكانة الحقّ لكلّ إنسان، الله قرّرها لمّا ارتضى ابنه أن يتّخذ «صورة عبد» (فيلبّي ٢: ٧).

لقد ضرب بولس العبوديّة لمّا سمّاها نيرًا، وضربها لمّا كشف أنّ الناس جميعًا، على كلّ فارق تقوله الدنيا وأهلها، إخوة وأحبّاء. يبقى أن نقبل نحن هذا الفكر المنجّي، ونضرب كلّ ما يوحي أنّنا مازلنا عبيدًا لكلّ خلل يتحكّم في مجتمعنا، لنستحقّ أن نكون أبناء الله الأحرار.

«لا تخمدوا الروح»

ماذا أراد بولس الرسول بهذه الآية المتّقدة التي دوّنها في آخر رسالته الأولى إلى أهل تسالونيكي (٥: ١٩)؟

مَنْ يعُدْ إلى السياق الذي أتت فيه الآية، لا يخفَ عليه أنّ الرسول أوردها بعد وصايا عدّة، حثّ المؤمنين فيها على أن يكرّموا المسؤولين الذين «يجهدون بينهم، ويرعونهم في الربّ، وينصحونهم»، وأن «يعظّموا شأنهم بمنتهى المحبّة»، وأن «يعيشوا بسلام في ما بينهم» (١٢ و١٣). وأن ينصحوا «الذين يسيرون سيرةً باطلةً»، ويشدّدوا «قليلي الهمّة»، ويسندوا «الضعفاء»، ويصبروا «على جميع الناس» (١٤)، و«يحترسوا أن يجازي أحد شرًّا بشرّ»، بل أن يطلبوا «الخير بعضهم لبعض»، ويطلبوه «لجميع الناس» (١٥)، وأن «يفرحوا دائمًا» (١٦)، ويصلّوا دائمًا (١٧)، ويشكروا «على كلّ حال» (١٨). فبعد هذا كلّه، قال لهم: «لا تخمدوا الروح، لا تزدروا النبوّات، بل اختبروا كلّ شيء وتمسّكوا بالحسن. اجتنبوا كلّ نوع للشرّ» (١٩ - ٢٢).

لا يمكننا، بادئ بدء، أن نبعد عن بحثنا ارتباط الآية، التي وصفناها بالمتّقدة، بما سبقها. فالثابت أنّ الروح القدس هو الذي ينشئ الالتزام الصحيح، ويحيي ما تطلبه الشهادة الراضية في العالم. وهذا يعني أنّ المؤمنين، بصدق قبولهم نعم الروح، يلتهبون، ويلهبون الأرض وَمَنْ فيها، وأنّهم، بمخالفته، يخمدونه فيهم. ولا يمكننا، تاليًا، أن نعتقد أنّ الرسول،

بقوله، يوحي بأنّ الروح يهجر هجرانًا كلّيًّا مَنْ نالوا مواهبه، وأخمدوها فيهم. فالثابت، أيضًا، أنّ الروح لا يترك، كلّيًّا، إنسانًا وقع في شرّ خطاياه بعد نواله نعمه في معموديّته. وذلك بأنّ المؤمن، الذي لا يقدر على حياة البرّ من دون روح الله، لا يقدر، إذا أخطأ، على تصحيح حياته من دون معونة الروح الباقي فيه. الروح، ولو تركناه، لا يتركنا. لكنّ «أنّاته التي لا توصف» تبقى فينا، وتعبّد لنا، إذا تهنا، درب الرجعة إلى الله. وتبقى، لئلاّ نعذر أنفسنا بعذر. فالروح، إن وعينا حضوره فينا وتجاوبنا مع عطاياه، نكون في خطّ خلاصنا سائرين. وإن أهملناه، نرمي أنفسنا، بحرّيّتنا، في هاوية مظلمة. وليس للهاوي في ظلام البرد من عذر ينفع.

بعد هذا، لا بدّ من كشف منافع قول الرسول. وهذه سنبسطها في أمرين متلازمين. الأوّل أنّ بولس أرادنا أن نبقى في عنصرة دائمة. فلا يخفى أنّ الروح القدس حلّ على الكنيسة، في اليوم الخمسين، «بشكل ألسنة ناريّة». واللسان للتكلّم، والنار للتطهُّر. وفي هذا، يجتمع أساسا الالتزام المسيحيّ، أي الكلمة والحياة. والكلمة والحياة مطلّ لله في الأرض. لقد حلّ الروح في العنصرة، لتذوق الكنيسة خلاصها بفهم وواقعيّة، وتقدر، تاليًا، على أن تنقل الجبال (متّى ١٧: ٢٠). والجبل صلد، والجبل عالٍ، والجبل بعيد. ومعنى نَقْلِهِ أنّ الروح إنّما حلّ، ليطرّي القلوب الصلبة، ويوضع المرتفعة، ويقرّب البعيدة. فما نستشفّه من قول الرسول أوّلاً، يحثّنا على أن نلتهب بحبّ الله وخدمة مجده، أي على أن نحيا له، وله وحده. وَمَنْ حيا لله، يجعله الله أداته في الأرض. ولا يفعل قَبْلَ أن يلهبه بروحه كلّيًّا،

كما فعل في يوم العنصرة. والروح، الذي كان قديمًا يحلّ يومًا ويحتجب أيّامًا، حلّ في العنصرة، ليقيم فينا إلى الأبد. ولقد أرادنا الرسول، بقوله، أن نساهم نحن في إبقائه متأجّجًا فينا. ولا يبقى متأجّجًا، فينا، إن لم نبقَ فيه، أي إن لم نخلص لبركات نعمه المتدفّقة نارًا ونورًا (أعمال الرسل ٢: ٣، ١٨: ٢٥؛ رومية ١٢: ١١)، ولا سيّما إن لم نطعه في الإخوة الحارّين. وهذا أظهره الرسول بقوله: «لا تزدروا النبوّات». ولا يعني بالنبوّات النبوّات القديمة، بل ما ينشئه الروح، في حاضر الكنيسة، بكلام الأنبياء الذي «يبني ويحثّ ويشدّد» (١كورنثوس ١٤: ٣). وهذا يرتّب على الجماعة، دائمًا، مسؤوليّة ألاّ تحصر حرّيّة الروح بأطر ضيّقة تقمع المواهب، وتفقر الكنيسة. فالرسول، بقوله: «لا تخمدوا الروح، لا تزدروا النبوّات»، رسم أنّ الجماعة، في كلّ زمان ومكان، لا يمكنها أن تكتشف مشيئة الله وسبل بنيانها ونموّها، إن لم تقبل المواهب العالية التي يدفقها الروح، بغزارة، عليها.

أمّا الأمر الثاني، فيكشفه الرسول بحضّه الجماعة على أن تحسن التمييز في كلّ شيء. والقاعدة، التي يطلب اتّباعها، هي: «اختبروا كلّ شيء وتمسّكوا بالحسن» (أنظر أيضًا: ١كورنثوس ١٤: ٢٩). وما يقصده أنّه من الممكن أن يظهر، في الجماعة، أشخاص يدّعون حيازة المواهب، أشخاص غير صادقين يوحون بأنّ أفكارهم ورغباتهم هي من إلهامات الروح القدس. ولا تصعب معرفة هؤلاء المدّعين. إذ إنّ كلّ ما هو فوضويّ وغير صالح وغير مفيد، يدلّ عليهم، ويفضح كذبهم (أنظر: تعليم الرسل الاثني عشر ٦: ٨). وفي قوله «اختبروا» تذكير بدور المسؤولين في الجماعة الذين

كُلِّفوا اكتشاف المواهب الحقيقيّة وإظهار مَنْ حازوها، ليساهموا في كلّ ما هو صالح ومفيد. ودور المسؤولين، تاليًا، أن يحموا المؤمنين مِنْ كلّ مَنْ يثيرون الشرّ. يقول: «اجتنبوا كلّ نوع للشرّ». والشرّ لا يبني، بل يهدم. وعاقبته وخيمة. وهذا كلّه يعني أنّ دور الجماعة، ولا سيّما المسؤولين فيها، لا يقتصر على اكتشاف المواهب الحقيقيّة وإبرازها فحسب، بل، إلى ذلك، أن تتصدّى للمخالفين، ليدركوا أخطاءهم، ويعرفوا، تاليًا، قيمة نعم الله المربّية، ويحسنوا الرجعة، إن أمكن.

الكنيسة كنيسة الروح القدس. وهي لن تقدر، من دون اكتشاف مواهبه الحقيقيّة وتثميرها، على أن تحيا باستقامة، وتشكر لله «عطاءه الذي لا يوصف» (٢كورنثوس ٩: ١٥)، وتشهد، في الأرض، لإله هو «نار آكلة» (عبرانيّين ١٢: ٢٩).

«إنّ مشيئة اللّه إنّما هي تقديسكم»

القداسة طلبُ الله في كلّ جيل. هذا نَقَلَهُ الرسول بقوله: «إنّ مشيئة الله إنّما هي تقديسكم» (١تسالونيكي ٤: ٣). وإذا عدنا إلى القول في موقعه، نجد أنّ بولس اختار دربًا من دروب تطبيق القداسة، بقوله: «ذاك بأن تجتنبوا الزنى، وأن يحسن كلّ منكم اتّخاذ امرأة في القداسة والحرمة، فلا يدع الشهوة تستولي عليه كما تستولي على الوثنيّين الذين لا يعرفون الله، ولا يلحق بأخيه أذًى أو ظلمًا في هذا الشأن، لأنّ الربّ ينتقم في هذه الأشياء كلّها... فإنّ الله لم يدعنا إلى النجاسة، بل إلى القداسة» (٤- ٧).

قَبْلَ أن نطلب معنى هذه الأقوال الراضية، لا بدّ من أن نشير إلى أنّ بولس لا ينشئ تعليمه من نفسه. فهو يعرف أنّ الله، الذي يطلب أن يكون جميع شعبه قدّيسين كما هو قدّوس (أحبار ١١: ١٤)، كشف عن ذاته وقدرته بإظهاره قداسته للناس «في ما بينهم» (عدد ٢٠: ١٣؛ وانظر أيضًا: حزقيال ٢٨: ٢٢، ٢٥، ٣٦: ١٦- ٣٨، ٣٨: ١٨- ٢٣). ولقد فهم أنّ هذا الكشف يتطلّب أن يخصّصوا له حياتهم كلّها، أي أن يلتفتوا نحوه، ويعترفوا بقداسته، ويلتزموا عبادته، ويمدحوه، ويسجدوا له (عدد ٢٧: ١٤؛ تثنية الاشتراع ٣٢: ٥١؛ أشعيا ٨: ١٣). ويعرف، تاليًا، أنّ الله أظهر، في آخر الزمان، مشيئته، بعمق لا يوازيه عمق، بإرساله قدّوسه إلى العالم، ليفتدي البشريّة، ويحقّق، بنعمة روحه، قداسته فيها.

إلى هذه المعرفة المنجّية استند بولس في أقواله المذكورة. فمشيئة

الله أن نرتضي قداسته. وهذا شرطه أن نحبّ ظهوره، ونعود إليه دائمًا، ونوافقه في كلّ أمر.

إذًا، يعبّد الرسول، لقرّائه، درب مشيئة الله (قداستهم)، بقوله: «ذاك بأن تجتنبوا الزنى». ولربّما يكون سبب تخصيصه ضرب الزنى أنّ هذه الآفة كانت شائعةً في عصره. وهي شائعة في كلّ عصر. والمعروف أنّ الزنى، في المفهوم الكتابيّ، هو شرّ الشرور. فالكتّاب الملهمون اعتبروا أنّ الشرك بالله زنًى، أو شبّهوا بالزناة الذين يخونون الله، ويعدون وراء وَهْم كلِّ شهوة (أمثال ٢: ١٧؛ هوشع ١: ٢، ٢: ٤ و١٥، ٤: ١٣- ١٥). فَمَنْ يزنِ، من حيث يدري أو لا يدري، ينكر الله، أو يؤلّه شهواته، ويتبعها بدلاً من الله.

معنى تجنّب الزنى يوضحه الرسول بقوله: «وأن يحسن كلّ منكم اتّخاذ امرأة في القداسة والحرمة». عبارة «اتّخاذ امرأة»، كما وردت في الأصل اليونانيّ، تفيد حرفيًّا: «اقتناء إنائه». واللفظة «إناء» اختلف حول معناها المفسّرون. فمنهم مَنْ رأى أنّها تعني الجسد، ومنهم المرأة، أو الزوجة. وكلٌّ له، في رأيه، دوافعه وحججه. ولو أنّنا نميل إلى الرأي الأوّل، غير أنّنا لا نرى نفعًا في الدخول في أسباب اختلاف المفسّرين. فما يعنينا، هنا، أنّ الرسول طلب من قرّائه «أن يجتنبوا الزنى»، ويحسن كلّ منهم أن يحفظ إناءه «في القداسة والحرمة». وحرمة الإنسان، أو كرامته، أن يعرف الله في حياته. وهذا يبيّنه بولس بقوله: أن «لا يدع الشهوة تستولي عليه كما تستولي على الوثنيّين الذين لا يعرفون الله». وقصده أنّ الزنى لا يليق بالذين آمنوا بالله

وقداسته، ونسبوا حياتهم إليه عن معرفة. فثمّة فرق شاسع ما بين المعرفة والجهل. وما من معرفة إلاّ للذين يطيعون الله، في حياتهم، بصدق كلّيّ.

ثمّ يتابع بولس كلامه بقوله: «ولا يلحق بأخيه أذًى أو ظلمًا بهذا الشأن». وما يعنيه أنّ مَنْ يبتغي القداسة لا يخالف الله بأذيّة أخيه، أو ظلمه، أي بارتكابه ما يخالف مع زوجة أخيه. ونرى أنّ لفظة «أخيه» هي مفتاح فهم ما يريده الرسول هنا. فأعلى ما يبتغيه أن يعرف المؤمنون، قَبْلَ أيّ شيء، أنّهم جميعًا أبناء الله وإخوة بعضهم لبعض. والأخ الراضي لا يؤذي أخاه. ولا يراد بهذا أنّ المؤمن يمكنه أن يزني مع غير نساء المؤمنين. فالناس جميعًا هم أبناء الله. وهذا يبيّنه الرسول بتذكيره قارئه بأنّ «الربّ ينتقم». وهذا يمنع منعًا باتًّا من أن يبرّر أحد زناه بقوله مثلاً: إنّه لم يرتكب الفاحشة مع امرأة أحد الإخوة، ليوحي بأنّه حرّ من هذا التحذير. فالرسول، بذكره الأخ والربّ، نسب المرأة المتزوّجة، وكلّ امرأة، إلى الله أوّلاً، وإلى زوجها تاليًا. ولا يعني هذا، أيضًا، أنّ أحدًا يمكنه أن يفعل سوءًا بعازبة، أو أرملة، أو مطلّقة. فهؤلاء لهنّ أب أيضًا، وهو الربّ. «والربّ ينتقم» لهنّ.

هذا كلّه لا يعني أنّ خطيئة الزنى، في قول الرسول، تقع مسؤوليّتها كلّها على الرجل. فالرسول، في طلبه تجنّب الرذائل جملةً، لا يميّز بين جنس وآخر. وَمَنْ قرأ ما كتبه بتدقيق (أنظر مثلاً: رومية ٦: ١٢- ١٤؛ ١كورنثوس ٦: ١٥- ١٦، ٧: ٢- ٤؛ غلاطية ٣: ٢٨)، لا يشكّ في أنّ كلّ إنسان، رجلاً كان أو امرأةً، مسؤول، عنده، أمام الله عن سلوكه.

في الأخير، يذكّر بولس المؤمنين بأنّ «الله لم يدعنا إلى النجاسة،

بل إلى القداسة». فَمَن ارتضى دعوة الله، يقطع نفسه عن كلّ ما يعيق تقدّمه في الحقّ. هل فعل «يدعنا» يذكّر بالمعموديّة؟ إن كان يذكّر، وهذا مرجّح كثيرًا، يكون كلام الرسول على «الوثنيّين الذين لا يعرفون الله» له دلالته هنا. وذلك بأنّ الذين انتسبوا إلى الله بالمعموديّة، فرادتُهم أنّهم يعرفون الله، وينفّذون مشيئته في العالم. فالمعمّدون يختلفون عن الوثنيّين بأنّهم يؤمنون بقداسة الله، ويتّخذونها نهجًا لحياتهم.

يبقى أن نقبل طلب الله، أي أن نفرز حياتنا له، ولا نبدله بلذّات غير شرعيّة. وهذا، الذي هو مشيئته، يتحقّق في سعي دؤوب وحياة طاهرة قوامها الاتّكال عليه وتصديق أنّ قداسته، بما يجود علينا من نعم، ممكنة في زماننا، كما كانت ممكنةً في غير جيل.

«تقبّلوا ضعيف الإيمان»

قولة بولس: «تقبّلوا ضعيف الإيمان، ولا تناقشوا آراءه» (رومية ١٤: ١)، تطرح على ضمائرنا، اليوم، أسئلةً عدّةً لا يستبعد حقّها المخلصون. فهل نحن قادرون على استلهام مقتضى هذه القولة في زمنٍ قلَّ فيه الأقوياء وكثر الضعفاء؟ أي هل نحن مستعدّون لأن نقبل تعليم كتابنا الملزم، فنعلّي التزام رفقة الإخوة على آراء بعضهم الغريبة، أو المزعجة، أو أنّنا نستبعد مَنْ نرى أنّ آراءه لا تنسجم مع آرائنا؟ وهل نحن نؤمن بأنّ ضعيف الآراء اليوم قادر، إن رآنا نقبله ونحبّه بصدق، على أن يصبح قويًّا غدًا؟ أسئلة تفرض علينا ذاتها فيما نحاول استجلاء قصد الرسول من قولته.

لا بدّ، بدءًا، من التأكيد أنّ مَنْ قرأ السياق، الذي افتتحته هذه القولة، لا يخفى عليه أنّ الرسول أراد فيه أن يبحث في وضع أشخاص دخلوا المسيحيّة من دون أن يتخلّصوا، كلّيًّا، من بعض أفكارهم القديمة. ولا يخفى عليه، تاليًا، أنّ بغية قلبه كانت أن يعلّي المؤمنون جميعًا حقّ المحبّة الأخويّة التي تمكّنهم، أيًّا كانت درجة تقدّمهم في الإيمان، من أن يعيشوا، معًا، في وحدة لا تقبل إقصاء أحد، أو إدانته.

إذًا، يريدنا الرسول أن نقبل كلّ أخ ضعيف. وذلك لإيمانه بأنّ كلّ إنسان، ضعيفًا كان أو قويًّا، له قيمته في جسد المسيح. ويبدو أنّ الضعفاء، الذين يقصدهم، كثر (أنظر: الرسالة عينها ١٥: ١). والضعفاء كثرٌ في أيّامنا أيضًا. فمعظم الذين نعايشهم ضعفاء في غير وجه، ولا سيّما في إهمال

التزامهم الكنسيّ. والضعيف منّا، ولو كان ضعفه يجعله يؤثر البعد على شركة كنيسته. ويريد الرسول، كما يحلو لنا فهمه، أن نقبله، أي أن نقبله أخًا لنا. ومن الصعب، واقعيًّا، على البعيد أن يرى نفسه أخًا لإخوة لا يشاركهم في أساس حياتهم. فهل يعني قول بولس أنّ الملتزمين مسؤولون عَمَّنْ كانوا بعيدين، ليساعدوهم في استرجاع التزامهم، وتاليًا أخوّتهم؟ هذا، برأيي، ممكن. لا، بل أكيد. إذ لا يجوز أن يقبل المؤمن الملتزم أن يكون أبناء الله، إخوته، بعيدين، ولا يقلقه أمرهم، ولا يبذل، من أجل عودتهم، كلّ ما يستطيعه. فالعمل على عودة البعيدين من موجبات المحبّة الأخويّة. والمحبّة هي دافع كلّ عمل وهدف كلّ التزام.

ثمّ لا يخفى أنّ الواقع يقول إنّ ثمّة ضعفاء بين الذين يؤمّون الكنيسة، ويشاركون في صلواتها ونشاطاتها. فكيف، أيضًا، يقبل، اليوم، أقوياء الكنيسة أخًا لهم ضعيفًا؟

يقول الرسول لقرّائه: «تقبّلوا ضعيف الإيمان»، ويمنعهم من أن «يناقشوا آراءه». والمناقشة من مقتضيات المحبّة. فهل أراد الرسول أن يقول: اقبلوا ضعيف الإيمان في ما بينكم، وارعوه، وأثبتوا له محبّتكم أوّلاً، ومن ثمّ يمكنكم أن تناقشوه؟ هذا، برأيي، أكيد. فللمناقشة أسسها في الكنيسة. ومن أعلى هذه الأسس أن يشعر الأخ الضعيف، قَبْلَ أن يناقشه أخ له قويّ، بأنّ الجماعة تقبله، وتحبّه. فالرسول يعرف، ويريدنا أن نعرف، أنّ كلّ ملتزم حديثًا، من الواجب أن يعطى فرصته، ليتقوّى. والمناقشة السريعة بين قويّ وضعيف قد تعطّل هذه الفرصة، ولا سيّما إذا جعلت الضعيف يشعر

بأنّه غير مرغوب فيه، وليس في آرائه. يطلب الرسول، إذًا، رعاية الضعفاء قَبْلَ أيّ أمر. فالرعاية المُحبّة، التي لها «حججها التي لا يعرفها العقل»، تقدر، وحدها، على أن تقتحم القلوب من دون أيّ إذن مسبق. وقد تمهّد للضعيف أن يقبل كلّ مناقشة راضية تجعله ينتبه لما يفوته، ويتبنّاه.

لا يساوم الرسول، بقوله، على الحقيقة. حاشا! لكنّه يُظهر، ولا سيّما هنا، أنّه يؤثر المحبّة الأخويّة التي يراها وجهًا من وجوه الحقيقة. ويؤثرها بدافع حكمته ووعيه أنّ وحدة الكنيسة هي التي دفعت ربّنا، الذي هو «ربّ الأحياء والأموات»، إلى بذل دمه في سبيل تحقيقها. وهذا، للأسف، يخالفه بعض الذين ينفصلون عن غيرهم لغير سبب تافه يوهمهم بأنّهم يدافعون عن الحقيقة. والمتوهّمون يتناسون حقّ المحبّة التي لا يعلو عليها أمر. ولربّما يكون قد حصل غير انفصال بين الإخوة، سببه أنّ بعضهم لم يحسن الإصغاء جيّدًا إلى مَنْ ظنّه مخالفًا. وربّما يكون أكثر من انفصال قد حدث سببه تناقلٌ غاب عنه كلّ إصغاء مباشر. ولربّما جرت خلافات أساسها أمور دنيويّة (مثلاً، انتخابات بلديّة، أو نيابيّة). ويدّعي بعض المنفصلين (أو الفاصلين!)، في هذه الحال أو تلك، أنّهم يحبّون الذين انفصلوا عنهم، وأنّهم يصلّون من أجلهم دائمًا. ولا يمنعهم هذا الادّعاء، في أحيان كثيرة، مِنْ تكفير مَنْ يُحسبون منحرفي الآراء، وتاليًا رفض مصالحتهم!

هل يقدر بعض المدّعين، الذين يعلّون آراءهم على قبول ضعفاء الإيمان، أن يتبنّوا قول الرسول؟ ليس، باعتقادي، من سبيل آخر ينفع مَنْ يؤمنون بأنّ ربّنا مات في سبيل خلاصنا ووحدتنا. ولا يعني هذا أنّ المؤمنين

الضعفاء يمكنهم، مثلاً، أن يردّدوا ما طاب لهم في أمر العقيدة القويمة. لكنّه لا يعني، أيضًا، أنّه من المسموح أن نقصي بعضنا بعضًا، ونكفّر بعضنا بعضًا، لمجرّد أنّ آراء غيرنا لا تنسجم مع آرائنا. وأساس كلّ عقيدة هو المحبّة (المطران جورج (خضر)، جريدة النهار، ٢٠٠٥/٦/٢٧؛ وانظر: غلاطية ٥: ١٤). فهل يمكن أن نعتقد أنّ مَنْ يخالف المحبّة يخالف العقيدة القويمة، ويقوّض أساسها؟

ما قاله بولس هنا، هو قول «رجل جعلته رحمة الله جديرًا بالثقة» (١كورنثوس ٧: ٢٥). ولا يجوز بنا أن نردّد، أمام أيّ من أقواله التي قد تصدمنا: «إنّ هذا رأي بولس، وأنا لي رأي آخر»! فَمَنْ كلّفه الربّ أن يبشّر العالم، لا يليق بِمَنْ يحبّون المخلّص أن يناقشوه. فهذا، وحده، ينجّيهم من الهلاك الذي تكلّم عليه رسول آخر، في دفاعه عن رسائل بولس، بقوله: «وقد ورد فيها أمور غامضة يحرّفها الذين لا علم عندهم ولا ثبات، كما يفعلون في سائر الكتب، وإنّما يفعلون ذلك لهلاكهم» (٢بطرس ٣: ١٦).

«لا تكونوا في همّ»

بعد أن قال الرسول بولس إلى المؤمنين في فيلبّي: «افرحوا في الربّ دائمًا»، حثّهم على التحرّر من كلّ همّ، بقوله: «لا تكونوا في همّ من أيّ شيء كان، بل في كلّ شيء لتُرفع طلباتكم إلى الله بالصلاة والدعاء مع الشكر، فإنّ سلام الله، الذي يفوق كلّ إدراك، يحفظ قلوبكم وأذهانكم في المسيح يسوع» (٤: ٦ و٧). ويعنينا معنى هذا الحثّ، ولا سيّما في هذه الأيّام الصعبة التي يكاد الهمّ يكون فيها هو القاسم المشترك بين جميع الناس.

ليس من الصعب أن يستدلّ قارئ الرسالة على بعض الهموم التي يحثّ بولس قرّاءه على أن يتحرّروا منها. وأوّلها خوفهم على مصير رسولهم الملقى في السجن والمهدّد بالموت (١: ١٢ و١٣ و٢٠). وتاليها المشاكل التي يثيرها خصوم الإيمان والحاسدون (١: ١٥، ٣: ٢، ١٨ و١٩). وثالثها بعض نزاعات لا لزوم لها (٤: ٢). وهذه الهموم تدفعنا، في هذا المقام، إلى أن نبعد عن بحثنا الهمّ الراضي الذي ذكره الرسول يعقوب، في رسالته الجامعة، وأعني قوله: «اندبوا شقاءكم واحزنوا وابكوا. لينقلب ضحككم حزنًا وفرحكم غمًّا» (٤: ٩). فهذا همّ طوعيّ لا يهمل ضرورتَهُ المستتيبون الذين فهموا أنّهم غرباء في الأرض (عبرانيّين ١١: ٨- ١٠). لكنّها لا تسمح لنا، في أيّ حال، بأن نبعد، كلّيًّا، ما يثيره الشرّير بإيحائه أنّ الله بعيد منّا ومن مشاكلنا التي تخبطنا من دون استئذان. فالشرّير من خصائصه المقيتة أنّه يثير الهموم، ويستغلّ، تاليًا، متاعبنا وأحزاننا، ليوحي

إلينا بأنّ الربّ يكتفي بمشاهدتنا في همومنا، وبأنّه يعد ولا يفي!

يعرف بولس صعوبة الهموم، التي تهصر القلوب، ولجاجتَها وظلمَها. ولذلك يكتب عن تجنّبها بواقعيّة لا تعرف تفاؤلاً هشًّا. فدعوته إلى أن يفرح قرّاؤه في الربّ هي دعوة واجبة في غير وضع. وذلك لعلمه أنّ الربّ القائم من بين الأموات أهدى العالمين الفرح (متّى ٢٨: ٨؛ لوقا ٢٤: ٤١ و٥٢؛ يوحنّا ٢٠: ٢٠). واللافت أنّه يدعوهم إلى الفرح، «في» الربّ، لعلمه، أيضًا، أنّ الفرح الحقيقيّ، الذي ما بعده فرح (متّى ٢٥: ٢١)، يستبق المؤمنون تذوّقه باندماجهم في جسد المسيح السرّيّ. فـ«الربّ قريب» (الآية الـ٥). ولا يليق بِمَنْ يتوق ملاقاته أن ترهقه هموم من المفترض أن يكون قد تجاوزها، أو عرف سبل تجاوزها، بالتزامه حياة كنيسته، واقتنائه الفرح المعروض عليه. ولكن، حتّى لا يستسهل المؤمنون، في فيلبّي، التزامهم، أو يسقطوا في اتّكال بطّال، يكمل الرسول حثّه بحضّهم على أن يرفعوا «طلباتهم إلى الله بالصلاة والدعاء مع الشكر». فالفرح لا يوافقه أيّ إهمال ولامبالاة، بل يفترض نشاطًا داخليًّا ووعيًا عميقًا يدلاّن، بواقعيّة، على أنّ الالتزام الحقّ لا تحدّه جدرانُ الكنيسة. وهذا يبيّن الجدّيّة المطلوبة من المؤمنين، في حال اجتاحتهم الهموم، وفي غير حال. ولا يعني هذا أنّ الله يرسل لنا الهموم، لنخضع له، ونطلب عونه. ولا يعني، تاليًا، أنّه، إذا عصفت بنا الشدائد، يحتاج إلى أدعيتنا وابتهالاتنا، ليتدخّل ويعيننا، فنشكر له تدخّله وعونه. فالله، الذي يعرف ما نحتاج إليه قَبْلَ أن نطلبه، لا يستعمل الشرور، ليذكّرنا بحقّه. لكنّه يريدنا أن نطلب إليه كلّ شيء (متّى ٦: ٣،

٧: ٧)، لنتعلَّم أن نسلّمه حياتنا كلّها، من دون أيّ شرط، ويكون «فرحنا كاملاً» (يوحنّا ١٦: ٢٤).

مَنْ يقرأ انسياب صياغة المطالب الثلاثة المذكورة (أي الصلاة والدعاء مع الشكر)، لا يخفَ عليه تلاصقها المحكم. فالرسول بسطها من دون أن يقطعها بأيّ أمر آخر يوحي بأنّنا، مثلاً، إذا صلّينا، نُعطى طلباتنا، وإذا أُعطيناها، نشكر من ثمّ لله استجابته. وهذا يعني أنّه يريدنا أن نتربّى على دوام الالتجاء إلى الله، ولا سيّما أن نتعلَّم أن نشكره دائمًا. فالشكر لله هو التعبير الأمثل عن اعترافنا بما يفعله معنا دائمًا. إنّه، إذًا، شكر على أفعاله الخلاصيّة التي نختبرها في حياتنا. وهو، تاليًا، شكر تفترضه الثقة، ثقتنا، بأنّ «الربّ قريب» منّا وحاضر، لينقذنا، ويقيمنا في سلام وطيد.

هذا ما دفع الرسول إلى أن يقول لقرّائه توًّا: «فإنّ سلام الله، الذي يفوق كلّ إدراك، يحفظ قلوبكم وأذهانكم في المسيح يسوع». والمعروف أنّ السلام، في التراث القديم، لا يعني انتفاء الحروب فحسب، بل، أيضًا، السعادة والاطمئنان والوفاق والثقة بصدق مواعيد الله المنجّية. والسلام ثمرة من ثمار حياة البرّ التي يحوزها الذين قبلوا المسيح سلامهم (أفسس ٢: ١٤). فما يفوق كلّ إدراك أنّ الربّ سالمنا، بموته وقيامته، مع الله أبيه، وأنّه القادر على أن يتدخّل دائمًا، ليقيمنا من همومنا، ويعيد إلينا سلامنا. وهذا يفترض، أمام كلّ قلق وحزن، أن نعرّي عقولنا، ونخضع قلوبنا للقادر، وحده، على أن يجعلنا نختبر سلامه بطريقة عجيبة. واللافت، هنا أيضًا، هو تأكيد الرسول أنّ سلام الله يحفظنا «في» المسيح. فبعد أن قال

لنا إنّنا نفرح «فيه»، يقول لنا، أيضًا، إنّنا نسلم «فيه». وقصدُهُ: أنّ الله جعل لكم مقامًا في مسيحه. فأقيموا فيه. وثقوا بأنّكم تسلمون من كلّ همّ وشرّ. فالهموم، مهما احتدّت، ومهما استغلّها إبليس أو أثارها، لا تستطيع أن تلعب بقلبٍ وذهنٍ خطفهما الله بالصلاة والدعاء مع الشكر، وحفظهما في مسيحه.

هل نستطيع أن نثق بما قاله بولس هنا؟ ليس لنا، إن كنّا مؤمنين حقًّا، من خيار آخر. فالرسول، الذي قال لقرّائه «لا تكونوا في همّ»، يقول لنا، الآن، الكلام عينه. ويبقى أن نحاول، في غير حال، أن «نرفع طلباتنا إلى الله بالصلاة والدعاء مع الشكر»، لنختبر صدق مواعيد مَنْ حلا له أن يحفظنا، دائمًا، فرحين وسالمين في ابنه الوحيد.

«ليس ملكوت اللّه بالكلام، بل بالعمل»

أورد بولس الرسول هذه الآية، في رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس (٤: ٢٠)، في سياق تحذيره المؤمنين من أن يميلوا آذانهم إلى «أقوال أولئك المنتفخين من الكبرياء»، الذين يتكلّمون ولا يعملون، أو لا يريدون أن يعملوا (وهنا، لا يقصد الرسول العمل بأحكام الشريعة القديمة التي قال، في غير موضع، إنّه لا يبرّر أيّ إنسان). ويقدر مَنْ يتتبّع الآية المذكورة، في موقعها، على أن يلاحظ أنّ السبب المباشر لقولها، هو أنّ هؤلاء المنتفخين قد «توهّموا» أنّ الرسول لن يقدم إلى زيارة كنيسة كورنثوس (١٨ و١٩).

طبعًا، لهذه الآية دلالات تتعدّى الظرف الذي دفع الرسول إلى قولها. فالعبارة عزيزة على قلبه وقلوب جميع كتّاب أسفار العهد الجديد الذين رفضوا كلّ تفريق بين الكلام والعمل، ورأوا أنّ هذا التفريق لا يوافق مسلّمات الإيمان، أي برّ الله وقداسته (١تيموثاوس ١: ٥- ٧، ٤: ١٢؛ ٢تيموثاوس ١: ١٣؛ طيطس ١: ١٦؛ يعقوب ٣: ١٣؛ ١يوحنّا ٣: ١٨).

أوّل ما يلفت، في العبارة التي تعلو هذه السطور، أنّ بولس أراد أن يدلّ على أنّ الانتساب الصحيح إلى الله وجماعته هو انتساب إلى «ملكوت الله». فليس الالتزام، في الكنيسة، انخراطًا في جماعة أرضيّة، أو زمنيّة. صحيح أنّ الجماعة تحيا في زمان ومكان معيّنين. ولكنّ الصحيح، أيضًا،

أنّها، بانتسابها إلى الله الذي لا يحدّه زمان ومكان، تستعمل الأزمنة والمدى، وفي آنٍ تتجاوزهما من دون أن تلغيهما. وما يلفت، تاليًا، أنّ الرسول، الذي صرف حياته في نقل الكلمة إلى أصقاع الأرض كلّها، كشف الحقّ بتأكيده أنّ الهدف الأساس من التعليم الإلهيّ أن يظهر في حياة الناس، أي «أن يُطبَّق عمليًّا» (رسالة القدّيس إغناطيوس إلى أهل رومية ٣: ١). وهذا يعني أنّ دعوة كلّ إنسان مؤمن، يعي انخراطه في ملكوت الله، أن يعرف الكلمة ويحفظها في قلبه، بجدّيّة ظاهرة، وأن يوافقها، بالجدّيّة عينها، في حياته، أي أن «لا ينكر الله في أعماله» (طيطس ١: ١٦). وهذه الموافقة هي دلالة من الدلائل على معرفة الكلمة وحفظها، أو هي الدلالة.

لقد ذكرنا أنّ الظرف، الذي دعا الرسول إلى قول ما قاله، هو أنّ ثمّة «معلّمين»، وصفهم بأنّهم «منتفخون من الكبرياء»، ظنّوا بأنّه لن يقدم إلى زيارة الكنيسة التي يُراسلها. وهذا إنّما يعني أنّ الذين يعيشون، في الكنيسة، على هواهم، أو من دون أن يقبلوا مواهب الله وتكليفه، معرّضون لكلّ شطط وانحراف. والله فوق الجميع. وهو الذي يحكم إن كان ما نقوله، أو نعمله، يوافق مشيئته، أو لا يوافق. أن ننخرط في حياة الجماعة، ونتكلّم كما يحلو لنا، من دون أيّ اعتبار لأحد، أو من دون اعتبار إذا كان كلامنا ينسجم مع مسلّمات إيماننا، لهو إلغاء لله وحقّه، ولكلّ مَنْ كُلِّفوا مسؤوليّةً في الجماعة. فالكلام الصحيح هو الذي يوافق الله، ويحترم خدّامه ومواهبهم. ومعنى هذا أنّ من مقوّمات العمل الموافق تعليم الكلمة أن نقبل الكنيسة كما أسّسها ربّها.

ثمّ إنّ العمل الصالح يقوم على موافقة الله المثلّث الأقانيم الذي يعمل دائمًا (يوحنّا ٥: ١٧). لم يقصد بولس، بقوله، أنّ خدمة التعليم ليست عملاً. لكنّ التعليم الكامل، عنده، هو العمل بمشيئة الله، أي إظهارها والسلوك بموجبها. فالسلوك هو تعليم أيضًا (أنظر مثلاً: رومية ٢: ٢١–٢٣؛ ١بطرس ٣: ١ و٢). وذلك بأنّ مشيئة الله، التي تظهر في الكلام، هي عينها تطلب أن يصدق ظهورها في السلوك والمواقف. فالمؤمن، إذا تصرّف بما يوافق مطالب ربّه، يقول مشيئة الله في تصرّفه، أي ينفّذها، ويعلّمها. ألا نعتقد، إذا كلّمنا أحدًا، بإتقان كبير، على الالتزام والفضيلة وطاعة كلمة الله وكلّ ما توجبه حياة البرّ، ورآنا نتجاوز ما قلناه، (ألا نعتقد) بأنّه سيسخر بنا، أو بإلهنا؟ و«الله لا يسخر منه، وإنّما يحصد الإنسان ما يزرع. فَمَنْ زرع لجسده، حصد من الجسد الفاسد. وَمَنْ زرع للروح، حصد من الروح الحياة الأبديّة. فلنعمل الخير ولا نَمَلّ، فنحصد في الأوان إن لم نكلّ» (غلاطية ٦: ٧– ٩).

بلى، إنّ العمل فضيلة الفضائل. ونحن لن تكون لنا نكهة، أو فرادة، إن لم نترجم، في حياتنا، ما قاله الله سلوكًا طيّبًا وقادرًا على تبيان صدق الله في هذا الوجود. «أنتم ملح الأرض»، «أنتم نور العالم» (متّى ٥: ١٣ و١٤)، «كلّ شجرة طيّبة تثمر ثمارًا طيّبةً» (متّى ٧: ١٧)، «قليل من الخمير يخمّر العجين كلّه» (١كورنثوس ٥: ٦؛ غلاطية ٥: ٩)، كلّها، وغيرها، آيات نيّرة لا يمكن أن تفهم، حقًّا، إن لم تكن شهادتنا واضحةً، في العالم، وضوح الشمس، وإن لم يكن التزامنا يهدف، بالفعل، إلى تحويل

العالم إلى الله.

هذا ما أراده بولس، في تحذيره المؤمنين في كنيسة كورنثوس، وتحذيرنا نحن أيضًا، ليكون انتسابنا إلى «الملكوت»، منذ الآن، انتسابًا حقيقيًّا وقادرًا على رفع العالم إلى الله، ونكون، بنعمة الروح القدس، معلّمين حقيقيّين وأنبياء حقيقيّين. إذ «ليس كلّ مَنْ يتكلّم بالروح نبيًّا، بل الذي يسلك مسلك الربّ. المسلك يميّز بين النبيّ الحقيقيّ والنبيّ الكاذب» (تعليم الرسل الاثني عشر ٦ : ٨).

النباهة

مِنَ الوصايا العديدة، التي قالها الرسول لتلميذه تيموثاوس، قوله «انتبه لنفسك وتعليمك، وواظب على ذلك. فإنّك، إذا فعلت، خلّصت نفسك والذين يستمعون إليك» (الرسالة الأولى ٤: ١٦).

تحلو لنا هذه الوصيّة لما تحمله من معانٍ يعوزها تنفيذُ كلِّ التزام كنسيّ صادق وخدمة صالحة. فبولس، الذي يعرف شرط سلامة إتمام كلّ تكليف، يريد أن يعرف تلميذه أنّ ما يطلبه كلّ مسؤول، في الجماعة، من المؤمنين إنّما يطلبه الله منه أوّلاً. وهذا ظاهر، جليًّا، في هذه الوصيّة، وظاهر في الآيات الإرشاديّة الطويلة التي سبقتها أيضًا. ففي الواقع، لقد اعتنى الرسول، قَبْلَ أن يورد هذه الوصيّة، بأن يأمر تلميذه بأن يَعرض على الإخوة كلّ حقّ، «ليكون للمسيح يسوع خادمًا صالحًا»، وأن يُعرض هو عن «الخرافات الدنيويّة وما فيها من حكايات العجائز»، وأن يروّض نفسه على التقوى، وأن يجاهد واضعًا «رجاءه في الله الحيّ مخلّص الناس جميعًا، ولا سيّما المؤمنين»، وألاّ يسمح لأحد بأن «يستخفّ بشبابه»، وأن يكون «قدوةً للمؤمنين بالكلام والسيرة والمحبّة والإيمان والعفاف»، وأن ينصرف إلى «القراءة والوعظ والتعليم»، ولا «يهمل الموهبة الروحيّة التي فيه، تلك التي نالها بنبوّة مع وضع جماعة الشيوخ أيديهم عليه»، وأن يصرف همّه إلى ذلك، ويلازمه، «ليظهر تقدّمه لجميع الناس» (٤: ١– ١٥).

سنترك، الآن، ما يتضمّنه هذا التمهيد الإرشاديّ، ونحصر أنفسنا

بالوصيّة المذكورة، ونحاول، بعون الله، أن نستلهم معناها، لنحيا بالحقّ، ونثبت فيه.

يبدأ بولس، إذًا، وصيّته بقوله لتلميذه: «انتبه لنفسك وتعليمك، وواظب على ذلك». ولا يمكننا أن نعتقد أنّ الرسول، بهذا القول، يشكّ في صحّة التزام مَنْ يخاطبه. فالرسائل الرعائيّة، التي الرسالة الأولى إلى تيموثاوس واحدة منها، هي مجموعة إرشادات هدفها استقامة الحياة في الكنيسة، ولا سيّما استقامة رعاتها. ونرى أنّ قصد بولس أن يرشد، ويذكّر، وينبّه، ويحذّر. فهذه كلّها تفترضها رعايته المؤمنين، وأوّلهم مَنْ كُلِّفوا مسؤوليّةً في الكنيسة. فالرسول يعرف أنّ حصن الإنسان الدائم هو أن يكون نبيهًا في كلّ ما هو حقّ، وأن يثبت على ذلك، ويعرف أنّ هذا حصنٌ للكنيسة كلّها أيضًا.

فالكنيسة لا تُترك من دون رقيب. أعداؤها كثيرون. وشرّ عدوّ هو مَنْ يحرّف المسلَّمات. ولذلك يطلب بولس من تلميذه أن «ينتبه لنفسه وتعليمه» أوّلاً، ليقدر على رعاية المؤمنين والدفاع عن الحقّ والقيام بتكليفه خير قيام. فالرقيب «قدوة». والناس لا يثقون إلاّ بِمَنْ كانت حياته توافق التعليم القويم الذي تغذّى به، وتبعه (الآية الـ٦). وهذا يفترض أن يركن تيموثاوس إلى الإيمان الحقّ، ويكشفه تامًّا من دون عيب (٢تيموثاوس ١ : ٥)، وتاليًا أن يسلك بموجبه دائمًا. فَمَنْ لم يتأصّل في إخلاصه لله بكلّ قول ومسلك، لا يمكنه أن يكون رقيبًا في الكنيسة، ولا أن يدافع عنها حقًّا. صحيح أنّ الكنيسة لا تكلِّف أحدًا أيّ مسؤوليّة، إن لم يكن نبيهًا في كلّ

شيء. ولكنّ الصحيح، أيضًا، أنّ النباهة تفترض المواظبة عليها. ونرى أنّ المواظبة هي قصد بولس في وصيّته المذكورة. إذ إنّ مَنْ يبتدئ التزامه بإخلاص، عليه أن يستمرّ بإخلاصه دائمًا. ومن مقتضيات تمام هذه الوصيّة أن يسهر الرقيب على المؤمنين دومًا، ليتبرّروا بأقوالهم وحياتهم، كما يسهر على حسن اجتماعات العبادة والإدارة والتنظيم.

ثمّ يتابع بولس كلامه بقوله: «فإنّك، إذا فعلت، خلّصت نفسك والذين يستمعون إليك». وهنا، لا يميّز الرسول بين خلاص تلميذه وخلاص المؤمنين الذي كُلِّفَ رعايتهم. فَمَنْ لا يعنِهِ خلاصه، لا يمكنْهُ أن يساهم في خلاص أحد. والعكس هو صحيح أيضًا. ربّما تنفع الرذيلة بأن يكره الناس شرّها. ولكنّ خلاص العالم رهن بطاعة الله وفعل كلّ خير دائمًا. وهذا يقدر المؤمنون، الذين نالوا عطايا الروح، على أن يساهموا فيه. فالمواهب المعطاة تؤهّل المؤمن لأن يمارس خدمته في الكنيسة من أجل خلاصه وخلاص المؤمنين جميعًا (رومية ١٢: ٦؛ ١كورنثوس ١٢: ٤؛ ١بطرس ٤: ١٠). وهذا مطلوب، كلّيًّا، من تيموثاوس الذي نال عطايا الروح، وكان مخلصًا بشهادة الكنيسة وتكليفها (الآية الـ١٤). وهو، بالقدر عينه، مطلوب، في كلّ زمان ومكان، مِنْ كلّ مَنْ كلّفهم الله مسؤوليّةً في الجماعة، ومِنْ كلّ مَنْ وعى موهبته ومقتضى نموّها.

معنى ذلك أنّ هذه الوصيّة لا تخصّ تيموثاوس وحده، بل تخصّنا جميعًا في أيّ موقع كنّا. فالنباهة التامّة أمرٌ يطلبه الله من جميع المؤمنين، ليحاكوا الصورة التي أرادها لكنيسته. فالكنيسة النبيهة هي التي

ترضيه. وذلك بأنّها تقدر، وحدها، على أن تقول مشيئة الله بفصاحة كلّيّة، وأن تحيا فيه، وتُصعد العالم إليه. وهذا يفترض أن يخلص الذين كُلِّفوا الرعاية لله الحيّ، وتاليًا أن يعي كلّ مؤمن مسؤوليّتَهُ عن نفسه وخلاصه، ودورَهُ، أيضًا، في الشهادة الصالحة التي تحتضن الآخرين، وتؤثّر في حياتهم وخلاصهم.

يبقى أن نذكر أنّ النباهة هي أوّل عطيّة نطلبها، في الخدمة الإلهيّة، بعد استحالة القرابين. وهذا إنّما يعني أنّ الله، الذي يجمعنا في بركات الشكر، هو الذي ينمّي فينا ما أنعم علينا به، ويساعدنا على أن نبقى على الإخلاص دائمًا، لنقدر على أن نرجو أن يقبلنا، نحن و«الذين يستمعون إلينا»، في ربوع ملكوته الأخير.

التواضع

في الرسالة إلى كنيسة فيلبّي، يدعو الرسول بولس المؤمنين إلى الحفاظ على الوحدة في التواضع، بقوله: «لا تفعلوا شيئًا بدافع المنافسة أو العجب، بل على كلّ منكم أن يتواضع، ويعدّ غيره أفضل منه» (٢: ٣).

ليس من السهل التكلّم على التواضع. هذا الذي رفّعه السيّد المبارك فوق كلّ الفضائل المبرورة، بقوله لتلاميذه (ولنا أيضًا): «تتلمذوا لي فإنّي وديع ومتواضع القلب، تجدوا الراحة لنفوسكم» (متّى ١١: ٢٩). وهذا الذي تفنّن آباؤنا بذكر بعض ما ينشئه. ومنه مثلاً: «أن يعتبر الإنسان نفسه خاطئًا وأدنى من الكلّ»، و«أن يقرّ بأنّ ما لديه من خير قد ناله من الله»، و«أن يصلّي باستمرار»، و«أن يخدم الإخوة بفرح». وهذا الذي قالوا، في وصفه، ما يفتن الألباب، ومنه مثلاً: «إنّه نعمة للنفس ليس لها اسم يعبّر عنها إلاّ بالخبرة»، وإنّه «علامة المسيح»، وإنّه «المحبّة»، وإنّه «مسكن البرّ».

لا يخفى أنّ هذه الأقوال المنشئة والواصفة ترتكز معانيها على قول بولس المبيّن أعلاه، أو أنّ قائليها يستقون منه. وإذا عدنا إلى قوله عينه، يلفتنا أنّ الرسول قد هيّأ كلامه على التواضع بقوله: «لا تفعلوا شيئًا بدافع المنافسة أو العجب». وهذا قاله بعد أن قال: «فإذا كان عندكم شأن للمناشدة بالمسيح ولما في المحبّة من تشجيع، والمشاركة في الروح والحنان والرأفة، فأتمّوا فرحي بأن تكونوا على رأي واحد ومحبّة واحدة وقلب واحد وفكر واحد» (٢: ١ و٢). وهذان القولان يبيّنان أنّ ما دفعه إلى

قوله هو وحدة المؤمنين في جسد المسيح، أو تعميق وحدتهم. فالوحدة لا يوافقها كلّ منافسة (أو منازعة) وعجب. أمّا المنافسة، فلأنّها تجعل الإنسان يفتّش كيف يكون، في عيني نفسه وعيون الآخرين، أفضل من غيره. وأمّا العجب، فلأنّه يجعله يحسب أنّه الأفضل.

تجنّبًا لكلّ شرّ مخزٍ، يقول الرسول: «بل على كلّ منكم أن يتواضع، ويعدّ غيره أفضل منه». ومعنى قوله، ببساطة، أنّ الإنسان، الذي تعنيه وحدة الجماعة، هو مَنْ يعتبر أنّ الآخرين «أفضل منه»، و«يستهدف صالحهم أكثر من صالحه» (رسالة اقليمس الأولى إلى كنيسة كورنثوس ٤٨: ٥ و٦). وهذا من ركائزه أن يعرف أخطاءه الشخصيّة، وما يجول في خواطر قلبه، وأن يعرف، تاليًا، أنّه لا يعرف كلى الآخرين وقلوبهم التي يفحصها الله وحده (مزمور ٧: ١٠). فإذا كان الإنسان يعرف ما يهاجمه هو من شرّ، أو يستحليه هو، أو يرتكبه هو، يكون الآخر، الذي لم يعطَ أن يتفحّص سرّه، «أفضل منه». أمّا إذا أغمض عينيه عن الشرور التي تلهيه ويفعلها، وفتحهما على كلّ ما يبدو له أنّ غيره يفعله، فيكون، في عيني نفسه، أفضل خلق الله!

ليست معرفة النفس وضعفاتها هي التي تعطي المؤمن أن «يعدّ غيره أفضل منه». فَمَنْ ينخرطْ في حياة الكنيسة بوعي ظاهر وتعنِهِ وحدتها، يقدرْ، أيضًا، بملاحظته فضائل المؤمنين المخلصين، على أن يصل إلى الاستنتاج عينه. وفي اعتقادي أنّ هذا هو أصل تعليم بولس عن التواضع وهدفه. إذ لا يمكننا أن نعتبر أنّ المؤمنين، في كنيسة فيلبّي، كانوا خفيفين،

أو مغترّين، أي بلا قرار أو عمق. فالرسالة، التي خطّها إليهم، على أنّها لا تخلو من بعض تحذيرات وملاحظات، جلّها تغنٍّ بمحبّتهم ووعيهم وأمانتهم ومشاركتهم في الخدمة. وما كلام الرسول على المنافسة والعجب إلاّ من باب التربية والرعاية. فبولس يعرف أنّ الذين يحيون في الكنيسة، ويتحمّسون لعمل كلّ خير، قد يغرّهم حالهم وقدرتهم، أي قد يعتبرون أنّهم مصدر فضائلهم. ويريدهم أن ينتبهوا إلى كلّ إغراء مقيت، ولا سيّما إلى وشوشة إبليس وشرّه وكبريائه، لئلاّ يسقطوا في فخاخه، ويتوهوا في مجاهله.

ذلك بأنّ التواضع يفترض أن تفرح «في الربّ كلّ حين» (٣: ١، ٤: ٤)، وأن تفرح، ضمنًا، بأنّ إخوتك يعمق وعيهم، ويتمرّسون بمحبّتهم وغيرتهم. ويفترض، تاليًا، أن تريدهم كذلك، وأن تساعدهم على ذلك. غير هذا وذاك تفاخر كاذب وكبرياء فارغة لا يليقان بِمَن انتسب إلى الربّ الوديع والمتواضع. وليس من آفة، مثل الكبرياء، تفصل المؤمنين عن الربّ وبعضهم عن بعض. ولذلك قال الرسول، لكلّ واحد، أن «يعدّ غيره أفضل منه». فَمَنْ تعتبره أفضل منك، لا تقدر، إن كنت منطقيًّا وتعي قيمة انتسابك إلى شعب الله، على أن تفصل نفسك عنه، بل تفرح به، وتعتبره مفيدًا لك ولغيرك. فالمؤمن، الذي يعي عضويّته في الكنيسة، لا يكون وعيه حقيقيًّا إن لم يقبل المؤمنين شركاءه، ويتقوَّ بهم. ولذلك ليس عبثًا أنّ بولس قال، بعد أن وصف وعي مؤمني فيلبّي وحماسهم المبرور: «أتمّوا فرحي...». ففعل «أتمّوا» يفترض أنّهم قائمون في التزام صحيح، ويريد الرسول أن

يزدادوا صحّة. والصحّة الكاملة تكمن في وعي حقّ وحدة الكنيسة التي من ركائزها تواضع أعضائها.

معنى ذلك جملةً أنّ للمؤمنين جمالات، والمتواضعون الحقيقيّون يمجّدون الله عليها، ويواكبونها بفرح حقيقيّ ودعاء صادق، حتّى يمنّ الله على المجاهدين بالثبات، ويزيدهم برًّا، ويكمل سعيهم. ومعنى ذلك، أيضًا، أنّ المنافسة المشروعة هي التي نطلب فيها أن يزيد الله نعمه على الناس، والتي تجعلنا نفرح بمحبّته لهم ورضوانه عليهم. فعلى هذا تتأسّس وحدة الكنيسة التي لا يطلب أعضاؤها مجدًا لأنفسهم، بل مجد الله المنعم الذي يريح نفوس الذين يتشبّهون بوداعة ابنه وتواضعه.

أن تتواضع، وتعدّ غيرك أفضل منك، هو، في الأخير، ألاّ ترى نفسك شيئًا، وأن ترجو أن يرعى الله الناس جميعًا برحمته، وأن يكونوا هم، في عينيه، كلّ شيء. هذا ما أراده بولس، ليكون الله «الكلّ في الكلّ»، وينعم على شعب مسيحه بوحدة كاملة.

وصيّة إلى الأغنياء المسيحيّين

يعرف معاشرو كلمة الله، فهمًا وطاعةً، أنّ الربّ قد اعتنى، في تعاليم ومواقف كثيرة، بأن يحضّ «أغنياء هذه الدنيا» على عدم وضع رجائهم في ما هو زائل، أي المال والممتلكات وما إليهما، وذلك في سبيل ربح ملكوت الله والاكتناز فيه (أنظر: متّى ٦: ٢٤، ١٩: ١٦- ٢٦؛ لوقا: ٦: ٢٤، ١٢: ١٣- ٢١، ١٤: ١٢- ١٤، ١٦: ١٩- ٣١، ١٨: ١٨- ٢٧). وهذا عينه ما ردّده تلاميذه، بأمانة كلّيّة، في غير ظرف ومناسبة (أنظر مثلاً: ١تيموثاوس ٦: ٩ و١٠؛ عبرانيّين ١٣: ٥؛ يعقوب ١: ٩- ١١؛ رؤيا يوحنّا ٦: ١٥).

البشارة الجديدة، التي نَقَلَها الرسل المكمَّلون بالروح إلى العالم كلّه، جعلت الناس القريبين والبعيدين يدخلون في دين الله أفواجًا. وكانت علامات الرضا أنّ المؤمنين جميعًا كانوا «جماعةً واحدةً، يجعلون كلّ شيء مشتركًا بينهم، يبيعون أملاكهم وأموالهم، ويتقاسمون الثمن على قدر احتياج كلّ منهم» (أعمال الرسل ٢: ٤٤ و٤٥، وأيضًا: ٤: ٣٢- ٣٥). وكان هذا تعبيرًا عن إيمانهم بأنّ الربّ يسوع، الذي «افتقر لأجلنا» (٢كورنثوس ٨: ٩)، هو، وحده، «رجاء المجد» (كولوسّي ١: ٢٨).

على هذه الحقيقة العظيمة كان رسول الأمم يعمل في حلّه وترحاله. فكان يحثّ المؤمنين على العطاء، ويأتي بالمال الذي يُجمع، ليوزّعه على «القدّيسين»، أي المؤمنين، ولا سيّما فقراء كنيسة أورشليم

(أنظر مثلاً: ١كورنثوس ١٦: ١ و٢؛ ٢كورنثوس ٨ و٩). وعليها، أيضًا، أسّس وصيّةً للأغنياء المسيحيّين، ففتح باب رجاء للذين يحسنون الإصغاء منهم. وكلَّف تلميذه تيموثاوس أن ينقلها إليهم، بقوله: «وصِّ أغنياء هذه الدنيا بألاّ يتعجرفوا ولا يجعلوا رجاءهم في الغنى الزائل، بل في الله الذي يجود علينا بكلّ شيء، لنتمتّع به. وأن يصنعوا الخير، فيغتنوا بالأعمال الصالحة، ويعطوا بسخاء ويشركوا غيرهم في خيراتهم، ليكنزوا لأنفسهم للمستقبل ذُخرًا ثابتًا لينالوا الحياة الحقيقيّة» (الرسالة الأولى ٦: ١٧- ١٩).

أوّل تعبير، في هذه الوصيّة، قول الرسول للأغنياء «ألاّ يتعجرفوا». وهذا سببه أنّ مَنْ حاز مالاً، أو امتلك في الأرض، قد يظنّ أنّه أفضل من غيره. قد يعلو على الناس، أو يحتقرهم. وَمَن اعتقد أنّه أعلى من غيره، بسبب غنًى أو جاه، ليس له مع الله نصيب. ثمّ أردف: «ولا يجعلوا رجاءهم في الغنى الزائل». فالمال زائل. والمسيحيّ الواعي لا يضع رجاءه عليه، بل «في الله الذي يجود علينا بكلّ شيء، لنتمتّع به». ولا يعني قوله أنّ الله يجود على الناس بمتعة امتلاك المال. فشأن الإنسان أن يحسب أنّ حياته من الله فحسب. وليس من متعة حقيقيّة بعيدًا من هذا الحسبان. المتعة الكاملة هي في الاتّكال على الله، أي في تسليم الحياة له وقبولها منه. فَمَنْ وهبنا الحياة، هو كفيل بنا. ولذلك المؤمن الحقيقيّ، غنيًّا كان أو فقيرًا، لا يتّكل على ما هو زائل. فما هو زائل من مخاطره أنّه قد يوهم الإنسان بثباته، ولا سيّما إذا ظنّ أنّ حياته وقوّته منه (لوقا ١٢: ١٥).

لا شيء مثل توزيع المال، إذا ملكناه، يحرّرنا من وهمه. هذا ما

جعل بولس يكشف الفضائل الراضية التي تبيّن الغنى الحقيقيّ. وأولى هذه الفضائل: «أن يصنعوا (الأغنياء) الخير»، تهيّئ للفضيلة الأخرى: «فيغتنوا بالأعمال الصالحة». وذلك بأنّ صنع الخير، الذي يفترض توزيع المال على المحتاجين، هو، تحديدًا، غنى المؤمن المقتدر في الأرض. وهاتان الفضيلتان تفترضان أن يعطي المعطون «بسخاء»، وأن «يشركوا غيرهم في خيراتهم». إذ لا قيمة لكلّ عطاء إن لم تحرّكه فضيلتا العطاء بسخاء والمشاركة في الخيرات، أي إن لم يوافقْ عمل الله الذي أحبّنا «حبًّا جنونيًّا»، مجّانًا، ومن دون منّة، ويُظهرْ أنّ الفقراء يستحقّون ما يعطون (أو ما هو لهم أصلاً)، لأنّهم «إخوتنا في الإيمان». وهذه الفضائل هي التي تعطي الأغنياء أن يتحرّروا من كلِّ وَهْمٍ، ويمتشقوا إلى «المستقبل»، وإلى ذخره الثابت الذي هو «الحياة الحقيقيّة» (وليست الوهميّة).

«الحياة الحقيقيّة»، التي هي رجاء كلّ مؤمن، هي التي توحي إليه بتصرّفاته. فالمؤمن يتعاطى دنياه بناءً على ما فعله الله، في التاريخ، ووعدِهِ الصادق، ولا يتعاطاها بناءً على الدنيا وما يقوله أهلها. فليست للدنيا بلاغة السماء، أو وضوحها. ولربّما يكون بولس، في قوله للأغنياء أن «يعطوا بسخاء... لينالوا الحياة الحقيقيّة»، قصد ما قاله الربّ يسوع، وهو: «اتّخذوا لكم أصدقاء بالمال الحرام، حتّى إذا فُقد، قبلوكم في المساكن الأبديّة» (لوقا ١٦ : ٩). فالفقراء أصدقاء الله. وَمَنْ يبيّن لهم حبّه من طريق إعانتهم، ينلْ شفاعتهم الثابتة. وهذا يعني أنّ الله كلَّف الفقراءَ والمساكين، الذين قبلوا الله معينهم في الأرض، أن يستقبلوا مَنْ حاولوا، في حياتهم، أن يقولوا انتسابهم

إلى ملكوته.

هذا هو باب الرجاء الذي فتحه بولس لِمَن اغتنى في هذه الدنيا. هو يعرف أنّ ولوجه ليس بالأمر السهل. ولكنّه يعرف، أيضًا، أنّ الله «على كلّ شيء قدير» (لوقا ١٩: ٢٦). فَمَن استطاع أن يغتني في هذه الدنيا، تدعوه هذه الوصيّة إلى أن يكون غنيًّا بالله. المال وَهْمٌ يزول. والله هو الحقيقة الثابتة الذي، إن أطعناه بصدق، نرث الحياة الحقيقيّة التي هي، وحدها، الغنى الباقي أبدًا، والكنز الذي لا يفسده «سوس أو عثّ»، ولا يسرقه أحد (متّى ٦: ١٩).

الصلاة الراضية

ليست الصلاة جهادًا نرفعه إلى الله من أجل عنايته بنا ونعمه التي يغدقها علينا فحسب، بل هي، أيضًا، جهاد من أجل خلاص الإخوة المؤمنين والناس جميعًا.

مِنْ التحيّات المعبّرة، التي تذكّرنا بحقّ هذا الجهاد المبرور، سلام لافت نَقَلَهُ الرسول بولس من تلميذ يدعى أبفراس إلى المؤمنين في كولوسّي. وهو: «يسلّم عليكم أبفراس ابن بلدكم، وهو عبد للمسيح يسوع لا ينفكّ يجاهد عنكم في صلواته، لتثبتوا كاملين تامّين في العمل بكلّ مشيئة الله» (٤: ١٢).

قَبْلَ أن ندخل في معنى هذا السلام المنقول، من اللائق أن نتعرّف، بكلمات قليلة، إلى مرسله.

لا يذكر بولس، في الواقع، الكثير عن أبفراس. لكنّ المواقع الثلاثة، التي يورد فيها اسمه، تدلّنا على خصائص جذّابة في الرجل. فهو معلّم في الكنيسة، وخادم أمين للمسيح يسوع، تعب في إنشاء جماعات مسيحيّة في غير مدينة: كولوسّي واللاذقيّة وهيرابولس (كولوسّي ١: ٧ و٨، ٤: ١٢ و١٣)، واحتمل الاضطهاد بمشاركته بولس في سجنه (فيلمون ٢٣).

أمّا في سلامه، فيشهد بولس لأبفراس، الذي هو «عبد للمسيح يسوع»، أي المؤمن إيمانًا كلّيًّا بسيادة الربّ المطلقة (أنظر: رومية ١: ١؛ غلاطية ١: ١٠؛ فيلبّي ١: ١؛ يعقوب ١: ١؛ ٢بطرس ١: ١؛ يهوذا ١: ١)،

بأنّه رجلٌ لا ينفكّ يصلّي من أجل المؤمنين، «ليثبتوا كاملين تامّين في العمل بكلّ مشيئة الله». وهذا يؤكّد عمق محبّة أبفراس للمسيح ربّنا ولكنيسته، ويوافق، تاليًا، ما كان شائعًا في التقليد اليهوديّ والتقليد المسيحيّ، وهو أنّ «صلاة البارّ تقتدر كثيرًا في فعلها» (تكوين ١٨: ٢٢- ٣٢؛ خروج ٣٢: ١١- ١٤، ٣٠: ٣٢؛ ٢ملوك ١٥: ١٤؛ يعقوب ٥: ١٦).

صلاة أبفراس هي الصلاة الراضية التي من الواجب أن يؤدّيها جميع المؤمنين بعضهم من أجل بعض (أنظر: ٢كورنثوس ٩: ١٤؛ أفسس ١: ١٦؛ فيلبّي ١: ٤ و٩؛ كولوسّي ١: ٣ و٩؛ ٢تسالونيكي ٢: ١٣؛ فيلمون ٤). فالصلاة من أجل الإخوة، والناس جميعًا، دعم أساس لكلّ همّة بارّة تبتغي القداسة في حيّز هذا الوجود. وهذا يعني أنّ المؤمن الملتزم هو مَنْ يعي أنّ الله زرعه في حقل الكنيسة (والعالم)، ليعاشر المؤمنين والناس جميعًا، ويواكبهم، ويساهم، قادرًا، في تنقيحهم وتقدّمهم في الحقّ، وليرفعهم، تاليًا، ويقدّمهم جميعًا على مذبح الله (كولوسّي ٣: ١٧). لقد عرف المؤمنون، في كولوسّي، تعب أبفراس من أجل أن ينقل إليهم كلمة الله، ليتبرّروا بطاعتهم وعمل كلِّ خير. ويريدهم الرسول أن يزدادوا يقينًا بعلمهم أنّ أبفراس نفسه، معلّمهم، يصلّي من أجلهم دائمًا. وذلك ليوحي إليهم بأنّ ثباتهم وكمالهم ليسا بيد مَنْ ساهم في تعليمهم، بل بيد الله وحده. فأبفراس كان يصلّي من أجلهم، ليستمطر عليهم نعمة الله التي تشفيهم من كلّ عيب، وتثبّتهم في الحقّ، وتكمّلهم.

ليس من دليل واحد، في السلام المنقول، على أنّ أبفراس كان

يصلّي من أجل المخلصين في كولوسّي حصرًا. فبولس يؤكّد أنّه يجاهد عنهم في صلواته، أي، كما يحلو لنا فهمه، عنهم جميعًا من دون أيّ تمييز. ولا يعني هذا أنّ مَنْ يصلّي من أجل ثبات غيره وكماله ينال طلبه من دون إرادة مَنْ يصلّي له. لكنّه لا يعني، أيضًا، أنّ الله لا يفتح أذنيه، للصلاة المرفوعة، إلاّ في حال كان مَنْ نصلّي مِنْ أجله يستحقّ صلاتنا. فهذا يشوِّه كون الصلاة هي ثقةً بالله وبقدرته المخلّصة. ومعنى ذلك أنّ المصلّي، الذي يؤمن بأنّ الله هو ضمانة كلّ صلاة، لا ينظر إلى استحقاق بشر. هو يصلّي فقط. ولا يخفى أنّ تراثنا، ولا سيّما النسكيّ، ذهب إلى أبعد من هذا المطلوب بتأكيده أنّ الصلاة لا تنفع الأحياء فحسب، بل قد تنفع الأموات أيضًا. وهذا ما يؤكّده أحد المحكوم عليهم في الجحيم، بقوله للقدّيس مكاريوس: «في الجحيم، لا يستطيع أحد أن يرى الآخر وجهًا بوجه. لكن، إذا صلّيت لأجلنا، فقد يستطيع أحدنا أن يرى شيئًا قليلاً من وجه الآخر. وهذا ما يخفّف عنّا».

ثمّ مَنْ يرفع الصلاة من أجل غيره يتّخذ غيره إلى قلبه أيضًا. وقد تحصل بين الإخوة مجافاة، أو خصومة. الصلاة قادرة على أن تشفي من كلّ بعد وجفاء، أو لامبالاة. ولنفترض أنّ أخاك لم يتجاوب مع صلاتك، صلاتك تشفيك أنت. والصلاة من أجل الذين تضمّهم قلوبنا برهان ساطع على أنّنا، فعلاً، نريد لهم الخير، الخير كلّه.

كثيرًا ما يسأل بعض المؤمنين: ماذا نقول إذا أردنا أن نصلّي من أجل غيرنا؟ الطريقة بسيطة، وهي أن نذكر اسم الربّ يسوع على مَنْ نرفع

الصلاة من أجله. فنقول مثلاً: يا يسوع اذكر عبدك فلانًا. يا يسوع وفّقه. شدّده. قَوِّه. علّمه حبّك. ردّه إليك. اشفه. ساعده في جهاده، ليعمل رضاك. أنره. ثبّته. كمّله بك. هذا، وغيره، يجب أن نرفعه باستمرار، ولا سيّما من أجل الذين نعرف أنّهم يحتاجون إلى رحمة الله وعونه (وَمَنْ لا يحتاج؟). ولا يليق بالعارف أن يتكاسل عن أداء الصلاة من أجل محتاج، ولا أن يبخل بالوقت. فالجهاد الموضوع أمامنا لا يوافقه أيّ كسل وبخل. كمالنا وكمال مَنْ نحبّهم يستحقّ كلّ بذل. هذا يجعلنا نحاكي محبّة الربّ الذي بذل نفسه من أجل أن نكمل.

تسحرنا صلاة أبفراس. وكم نعوزها في هذه الأيّام التي كثرت فيها البرودة، وعمّ الإهمال، وشاعت الفرديّة. فلنجهد أنفسنا نظيره، ونسعَ إلى أن نكون أمناء في كلّ شيء. هذا، بالتأكيد، يكافئنا الربّ عليه، لأنّه تجاوب مع ما عمله هو «من أجل خلاص العالم».

«اثبتوا في الإيمان»

لمّا قال بولس «اثبتوا في الإيمان»، كان يعرف أنّ الجماعات البشريّة يختلط فيها الأبرار والخطأة والذين يشوِّهون الحقيقة بأفكارهم وأوهامهم. فهذه الوصيّة كتبها، في آخر رسالته الأولى إلى كنيسة كورنثوس (١٦: ١٣)، بعد أن وبّخ مستلميها على خطايا عديدة وتقصيرات جمّة، وبعد أن شرح لهم أصول الحياة المسيحيّة بإجابته عن أمور كثيرة طرحوها عليه.

من أهداف الآية، بمداها العميق، أنّها دعوة إلى المؤمنين الثابتين في الحقّ، ليكملوا مسيرتهم الطاهرة، كلّ يوم، وكلّ اليوم، بجدّيّة كاملة، ويحاولوا أن يساعدوا الخطأة بينهم على أن ينفضوا عنهم غبار شرورهم، ويتّبعوا الحقّ بثبات ظاهر. ومنها، تاليًا، أنّها تنبيه إلى الذين لم تعرف قلوبهم محبّة الله، ولم يختاروه سيّدًا وحيدًا لحياتهم، أن يبطلوا اعوجاجهم، لئلاّ يخسروا البركات التي تتنزّل على الطاهرين.

ذلك بأنّ الإنسان لا يحوز الإيمان عفوًا، ولا يحفظه، ويحافظ عليه، من دون جهاد. فالإيمان الصحيح ينمو بقبول عطايا الله واتّباع مشيئته. وهذا، في المسيحيّة، يفترض انخراطًا في حياة الجماعة وقبول فكرها ومناقبيّتها. الإنسان، الذي يعتبر نفسه مؤمنًا من دون أن ينخرط في حياة كنيسته، يتوهّم أنّه مؤمن. إذ لا يمكن أن يعرف اللهَ أحدٌ معرفةً صحيحةً، ويثمر، إن لم يبالِ بحياة كنيسته. فالبعيد يختلف عن القريب، أو الملتزم، اختلافًا جوهريًّا. ولا شيء يبعد عنه، بعيدًا، السقوط في فرديّة معيبة، أو

التعرّض لأفكار تتجاذبه، لتزيد في بعده وتجاهله.

«اثبتوا في الإيمان» تعني، إذًا، اثبتوا في الإيمان «الذي سلّم إلى القدّيسين تامًّا» (يهوذا ٣). فالإيمان ليس شأنًا فرديًّا، أي يعيشه الإنسان بعيدًا من كنيسته، ولا يعبّر عنه، كلّيًّا، ما يحسّ به المرء من شعور. فالشعور قد تثيره عواطف دخيلة، وقد يرتهن لتصرّفات بالية. فماذا تعني العبارة: «آمن بالحجر تبرأ»، التي يتفاخر بتردادها بعض «المؤمنين»، غير تأكيد ذات الإنسان وشعوره وأوهامه؟ الإيمان، الذي ليس الله هدفه، إنّما انحراف هو. وإذا كان الله هدف الإيمان، فهذا يعني أنّ الله هو الذي ينشئه في النفس التي تدرك عريها ومحدوديّتها، وتحاول، بعونه، أن تتمّم رضاه. ورضاء الله أن نحبّه، ونفضّله على كلّ ما يعيق طاعتنا إيّاه. والطاعة الحقيقيّة تطلب أن نحيا إيماننا به مع جماعة المؤمنين القادرين على أن يساعدونا على تجديد أنفسنا، لنبلغ القامة التي أرادها المسيح لنا.

قد يصعب هذا الكلام على الذين يدّعون الإيمان. فمعظم الناس يحسبون أنفسهم مؤمنين. ويرفضون أن يتدخّل أحدٌ في «إيمانهم». وهذا من أهمّ أسبابه اجترارُ ما تقوله الدنيا وتربيتها المنحرفة. وذلك بأنّ الكثيرين نشأوا على البعد، وأنشأوا مَنْ لهم وإليهم على البعد عينه. أن ترى، مثلاً، أباك وأمّك يعيشان بعيدين من الله، فمن المرجّح كثيرًا أن تحذو حذوهما. يحتاج الإنسان إلى أعجوبة حقيقيّة، حتّى يصحّح اعوجاجًا يراه في عائلة لا تعير رضا الله أيّ أهمّيّة. والأعجوبة ممكن حصولها إذا ثرنا على الخطأ، واعتبرنا أنّ الله هو مصدر التربية السليمة. الإنسان لا يتربّى، ولا يؤمنُ

فعلاً، إذا أصغى إلى الأخطاء، التي تنتهجها عائلته أو مجتمعه، وجعلها قانون حياته. فما يُرى في العائلات، اليوم، أنّ الكثيرين يتعاورون الأخطاء، ويشوِّهون الحقيقة. وهذا، الذي لا يمتّ إلى الله بِصلة، يناقض الحقّ والأمانة التي هي معنى من معاني الإيمان.

ما يلفت أنّ الرسول بولس، بعد قوله «اثبتوا في الإيمان»، قال أيضًا: «ولتكن أموركم كلّها بمحبّة» (الآية الـ١٤، أنظر: الرسالة ذاتها ١٣: ١٣). وإرادته أن يبيّن أنّ الإيمان لا يكون كاملاً، أو حقيقيًّا، من دون حفظ الوصيّة العظمى. فالمحبّة هي قاعدة كلّ فضيلة وكلام وتصرّف صالح. أن نؤمن بالله يعني أن نحبّه، ونحبّ الناس جميعًا. وهذا يردّنا إلى ما ذكرناه أعلاه، وهو أنّ الإيمان لا يفهم فهمًا صحيحًا ما لم ننخرط في حياة كنيستنا، وما لم نشهد لمحبّة الله، التي في المسيح يسوع، في عالم يتجاذبه البغض والكراهية والعداء وكلّ شرّ. هذه هي الشهادة الكاملة لكلّ مَنْ آمن بالله، أي مَنْ اعتقد بأنّ الله أحبّ العالم، وأقام كنيسته (أي المؤمنين جميعًا)، لتقول حبّه، وتمدّه في الدنيا.

يبقى أن نثبت في الإيمان، ونحاول أن نرضي الله، لنوافق عطيّته التي تثمر في حياة الطهر ومعيّة الأطهار، أي أن نحاول، كلّ يوم، أن يزداد حبّنا له. وذلك بانخراط فاعل في شركة الكنيسة، وصلاة دائمة، وتوبة حقيقيّة دعامتها قراءة الكلمة الإلهيّة وما قاله أبرار التاريخ فيها توضيحًا ومسلكًا، ومحبّة للناس لا تعرف تمييزًا وتفضيلَ وجهٍ على آخر.

هذا ما يريده الرسول بولس منّا جميعًا، حتّى نؤكّد، بطاعتنا، أنّنا

نوافق الله الذي أرادنا بشرًا ثابتين في الإيمان، وقادرين، بالنعمة، على أن نساعد الذين دوّخهم العالم، والذين يفتّشون، بصدق، عن الحقيقة التي هي جوهر الوجود.

«الرجاء لا يخيّب صاحبه»

الرجاء هو أحد المواضيع الرئيسة في رسائل بولس والأدب المسيحيّ بعامّة. واللفظة لا يقتصر معناها على ما ينتظره المؤمن من خير في هذه الحياة الدنيا، أو ما يحيا به، بل يتجاوزه إلى الحياة الأبديّة أيضًا (أنظر مثلاً: رومية ٥: ٢، ٨: ٢٤؛ ١كورنثوس ١٣: ١٣؛ ٢كورنثوس ١: ١٠؛ أفسس ١: ١٨، ٢: ١٢؛ كولوسّي ١: ٥؛ ١تيموثاوس ٤: ١٠؛ طيطس ١: ٢، ٢: ١٣، ٣: ٧).

«الرجاء لا يخيّب صاحبه»، هي فاتحة آية أوردها الرسول، في رسالته إلى كنيسة رومية، فشكّلت مدخلاً لقوله: «لأنّ محبّة الله أُفيضت في قلوبنا بالروح القدس الذي وُهب لنا» (٥: ٥).

باعتقادي، لا يوجد، في العهد الجديد، تعليل لمعنى الرجاء أفصح من التعليل المذكور. فما قاله الرسول هنا، يبيّن، بما لا يحتاج إلى إضافة، أنّ قاعدة رجاء الإنسان ليست حلاوته، أو ماله، أو علمه، أو ذكاءه، بل إنّ الله، الذي لا يقاس علوّه، قد تنازل، وأفاض علينا محبّته ونعمه التي لا توصف. وهذا، باختصار لا تنقصه فصاحة، يقول «التدبير الذي تمّ من أجلنا». فأنت، مؤمنًا، ترجو ما وهبك الله إيّاه، وقبلته بحرّيّة ورضًى، أي ما اختبرته أنت نفسك. إذ إنّ «فضيلة الاختبار تلد الرجاء» (رومية ٥: ٤). والاختبار هو تنازل إلهيّ أيضًا. إذ إنّ أحدًا لا يقدر على أن يختبر ما فعله الله، إن لم يلده الله بروحه و«كلمة قدرته» (عبرانيّين ١: ٣). وهذا يمنعنا،

مؤمنين، مهما مررنا بأوضاع صعبة، من أن نرزح تحت ثقل أيّ عجز ويأس مهلكين، وتاليًا من أن نفتّش، بعيدًا من الله وكلمته التي هي قاعدة رجائنا (رومية ١٥: ٤)، عَمَّنْ يطمئننا بكذبه، ويريحنا بوهمه (أي أن نقصد، مثلاً، السحرة والعرّافين ومستحضري الأرواح وأمثالهم)! فَمَنْ يفعل ذلك (وهناك مَنْ يفعل!)، بدراية منه أو من دون دراية، يتنجّس بِمَنْ قصدهم (أحبار ١٩: ٣١؛ تثنية الاشتراع ١٨؛ إرميا ٨: ١٧؛ حزقيال ١٣: ١٧– ٢٣؛ حكمة ٤: ١٢)، ويخسر نعم الله التي تعمّر الحياة، وتحمي من كلّ شرّ. كلّ حياتنا في الله تفترض وعيًا، أي تعلُّقًا كاملاً بالمسيح يسوع الذي هو «قوّة الله» (١كورنثوس ١: ٢٤)، و«رجاء المجد» (كولوسّي ١: ٢٧)، أي الذي يحوي، في شخصه، عطايا الله الفيّاضة ووعوده الصادقة.

هذا كلّه يبيّن أنّ الرسول، بكلامه، لا يخالف الواقع، أو يتفاءل تفاؤلاً هشًّا. فلقد قال إنّ للرجاء «صاحبه». ما يعني، عنده، أنّ ثمّة مَنْ يرجو حقًّا، وثمّة مَنْ يدّعي الرجاء، أو مَنْ لا يرجو بتاتًا. ليس من تعليم، يراد به تنبيهنا من كلّ ادّعاء باطل أو إهمال فارغ، أعلى ممّا قاله الرسول هنا. فهو لا يقول ما يقوله من دون هدف. وهدفه، في كلّ قول، أن نبني حياتنا على الله فحسب. وَمَنْ يفعل، يعلّمه فعله أنّ الله معه دائمًا، ولا يبخل عليه بشيء. فالله، في نظر المؤمن النبيه، لا يحتاج إلى أن يثبت فعله الخلاصيّ. المؤمن، الذي امتلأ كيانه من محبّة الله، لا يطلب إثباتًا آخر. وما يجب أن نلاحظه، في هذا الموضع، أنّ الرسول لم يقل: «جرّبوا الله، فتتبيّنوا قوّته وصدق عطاياه»، بل تكلّم على خلاص الله المحقّق والمستمرّ في التاريخ

(ولنا) سببًا كافيًا، لنؤمن، ونرجو. وهذا لا يمنعنا، مؤمنين، من أن ننتظر، بطلب أو من دون طلب، أن يتدخّل الله في المصاعب التي تعترضنا في حياتنا، ليحلّها لنا اليوم وغدًا، بل، على العكس، يفترض ذلك.

لا أريد أن أسيء إلى ضمير أحد. لكن، ماذا يعني أنّ بعض المسيحيّين، إذا سألوا الله أمرًا، ولم يمنحهم ما سألوه تحديدًا، تراهم يشكّون في قدرته، وأحيانًا يكفرون به؟ أليس هذا التصرّف دليلاً ثابتًا على ضعف إيمان بعضنا، وتاليًا ضعف رجائهم بالله؟ والله، الذي «على اسمه يكون رجاء الأمم» (متّى ١٢: ٢١)، لا يردّ أحدًا خائبًا. وإذا تأمّلنا في علاقتنا به، لا يعترينا أيّ ريب في أنّه دائم الحضور ودائم الاستجابة. ما يؤسف عليه أنّ بعضنا يختزلون علاقتهم بالله في موقف، في لحظة طارئة. فإن كنّا نرى أنّ موقف الله لا يناسبنا في هذه اللحظة، ننسى كلّ ما يفعله معنا! والله يجيبنا بما ينفع خلاصنا. الله ليس بشرًا، لنتعاطى معه كما يفعل «الخطأة» بعضهم مع بعض. الله مخلّصنا. هذا موقف لا يجادله مؤمن. بلى، ما تفترضه علاقتنا بالله أن نثق به دائمًا. والثقة صفة من صفات الرجاء (عبرانيّين ٣: ٦)، وهي، أيضًا، عنوان كلّ علاقة تجمعنا بالله (عبرانيّين ١١: ١). وبلى، ربّما لا يعطينا الله، أحيانًا، ما نطلبه. لكن، ألا يستدعي هذا منّا بحثًا جدّيًا عن سبب ذلك؟ لا يستطيع مؤمن «خائب» أن يتطاول على الله، بل من واجبه أن يسأل نفسَهُ عن سبب خيبته وعدم استحقاقه، أي أن يبحث عن مكامن ضعفه، ويجتهد في أن يصلح نفسه بنور الله وحكمته، ويسترجع استحقاقه. والله حاضر، ليساعدنا دائمًا. لا أريد، بهذا، أن أقول إنّ الله لا

يمتحن أيًّا من أصحابه بتاتًا، بل التأكيد أنّ صاحب فضائل الله، إذا اعتراه ضيق، لا يتغيّر إيمانه بالله، بل يبقى واثقًا بأنّه يضع له مخرجًا لكلّ ضيق (١كورنثوس ١٠: ١٣)، أي يبقى ثابتًا على صخرة انتظاره. المؤمن الراجي ثابت، كما الله هو ثابت (عبرانيّين ٦: ١٩).

الله يحبّنا. هذا سبب يكفي، لنحيا به وله، ونرجو منه كلّ شيء بثقة ملؤها الفرح (رومية ١٢: ١٢). فإنّنا، إن قبلنا حبّه، ويجب أن نقبل، نقدر على أن نحيا في بركات روحه الممنوحة لنا بفيض، وأن نغلب كلّ العواصف المتعبة التي تضربنا، وأن نسير، يومًا فيومًا، إلى ذلك اليوم الذي يختم الله، فيه، زمان الناس، ويحقّق رجاءنا الأخير.

«ولتكن المحبّة بلا رياء»

نهى العهد الجديد عن آفة الرياء، وأدانها بشدّة (أنظر مثلاً: متّى ٦: ٥ و١٦؛ مرقس ٧: ٦ و٧، ١٢: ١٣- ١٧؛ لوقا ١٢: ١؛ ٢كورنثوس ٦: ٦؛ ١تيموثاوس ١: ٥، ٤: ٢؛ ٢تيموثاوس ١: ٥؛ يعقوب ٣: ١٧؛ ١بطرس ١: ٢٢). ولقد حدّد الربّ معنى هذه الآفة، في التوبيخ الطويل الذي حفظه متّى في إنجيله، ولا سيّما قوله: «الويل لكم، أيّها الكتبة والفرّيسيّون المراؤون، فإنّكم أشبه بالقبور المكلّسة، يبدو ظاهرها جميلاً، وأمّا داخلها، فممتلئ من عظام الموتى وكلّ نجاسة. وكذلك أنتم، تبدون في ظاهركم للناس أبرارًا، وأمّا باطنكم، فممتلئ رياءً وإثمًا» (٢٣: ٢٨).

سنهمل الكلام على الفرّيسيّين والكتبة، ونحصر أنفسنا بكلام بولس الوارد في رسالته إلى أهل روميّة، وأعني قوله: «ولتكن المحبّة بلا رياء، اكرهوا الشرّ والزموا الخير» (١٢: ٩)، ونطلب، بعون الله، معناه، لنتجنّب لعنة الرياء وضرّها المشوِّه.

الرياء، أو المراءاة، هو أن يظهر الإنسان لغيره خلاف ما هو عليه. هذا واضح في تعريف الربّ المدوّن أعلاه، وواضح في كتب اللغة أيضًا. وأن تكون المحبّة بلا رياء، هو أن تكون صادقةً، أي حقيقيّة. وهذا ملزم للمؤمن الذي يثق بأنّ الله أحبّه حبًّا حقيقيًّا، وبرهن عن حبّه، في سطوع كلّيّ، بموت ابنه على الصليب. فالمؤمن يبني على الله، ويحاول أن يتشبّه به، في كلّ قول وتصرّف، لما فيه خيره وخير أعضاء الكنيسة والناس أجمعين.

وهذا، في الإصحاح ذاته، يبيّنه الإرشاد الطويل الذي اقتطعنا منه هذا القول، والذي يبتدئه الرسول بحثّه قرّاءه على «تجديد عقولهم، ليتبيّنوا مشيئة الله». ويؤكّده، تاليًا، تعداده المواهب، التي يعطيها الله للمؤمنين، والتي تميّز كلّ واحد منهم بما وُهِبَ في سبيل «الخير العامّ»، أي بناء الكنيسة التي تجمع الكلّ بالمحبّةِ أساسِ كلّ موهبة. فالمحبّة الأخويّة الصحيحة هي محبّة المؤمنين الذين يجمعهم وعيهم أنّهم أبناء الله.

لا نعلم إن كان في كلام الرسول توبيخ على تقصيرٍ رآه، أو تشويهٍ أُخبر عنه. لكنّ هذا لا يمنعنا من التأكيد أنّ همّه الأوّل، ممّا قاله جملةً، ولا سيّما القول الذي أردنا أن نحصر ذاتنا به، هو وحدة الجماعة في هذا الوجود. وهذا ظاهر، بجلاء كلّيّ، في قوله: «فكذلك نحن في كثرتنا جسد واحد في المسيح، لأنّنا أعضاء بعضنا لبعض» (الآية الـ٥). والرياء لا يوحّد، أو لا يعمل في سبيل الوحدة. الرياء يجزّئ، وأقلّه يفصل المرائيّ عن غيره، أو يغلقه على نفسه. وإذا اعترف المرائيّ بمواهب الآخرين، لا يعترف بها حقًّا، بل يكذب في داخله. فالمرائيّ لا يمكنه أن يفرح بأحد، ولا أن يشارك في نموّ الآخرين، أو لا يهمّه نموّ أحد أصلاً. وهذا يعني أنّه لا يمكنه أن يكون تلميذًا حقيقيًّا للمسيح.

ذلك بأنّ التلميذ لا ينتحل الفضيلة، بل يعتنقها، حقًّا، باتّكال ظاهر على الله، وبسعي دؤوب في حياته كلّها. مَنْ ينتحل المحبّة، وغيرها من الفضائل المنجّية، غريب عن حقّها. يستعملها استعمالاً خارجيًّا، أي يلفّق. وَمَنْ يلفّق بادّعائه حيازة أيّ فضيلة، لا يؤمن بفعلها. وليس هذا

فحسب، لكنّه أيضًا، أو أوّلاً، لا يؤمن بوجود الله. فالتلفيق مهزلة وتزييف. وهو تعبّد للشرّ وإنكار للخير. ولذلك قال الرسول، توًّا، بعد أمره الأوّل: «اكرهوا الشرّ والزموا الخير». فالرياء شرّ، والمحبّة هي الخير، أو الخير كلّه.

إذًا، تلميذ المسيح يحبّ الله والآخرين بصدق، لينمّي نفسه، ويساهم في نموّ الكنيسة التي ينتمي إليها. والمحبّة ليست شعورًا فحسب، بل هي، أوّلاً، أن تريد الخير للآخرين، وتسعى إلى أن يثبتوا فيه. فلا يكفي المؤمن أن يكره الشرّ ومظاهره جملةً، على أهمّيّة ذلك، بل المهمّ أن يفعل الخير، ويريده لجميع الناس، ولا سيّما «إخوته في الإيمان». وأمّا الأهمّ، فأن يفرح لخيرهم، ويلازمهم، ويلتزمهم، أي أن يدعمهم بجدّيّة ظاهرة. فالمحبّة الحقيقيّة فاعلة. والمراءاة ضدّ كلّ فعل. ولذلك يفضح المرائيّ نفسه، قَبْلَ أن يفضحه الربّ، لأنّه لا يقدر على أن يفعل الخير، ولا يريده لأحد.

السؤال، الذي يطرح ذاته هنا، هو: كيف يداوي المرائيّ نفسه؟ ودواء الجميع هو ربّنا يسوع. وليس من شفاء، لأيّ آفة، إلاّ إذا انفتحنا عليه، وقبلنا حبّه وخلاصه. والكنيسة هي، تحديدًا، القادرة على مساعدة كلّ من سقط في آفة مشوّهة. هذا، إذا قرّر الساقط أن يكشف نفسه، ويعترف بمكنونات قلبه. فالشفاء الكامل يفترض أن يقرّ المرائيّ بعيبه، ويؤمن بأنّ الله قادر على تجديده بعون الإخوة وإصلاحهم. وهذا يفترض رفض كلّ تهاون. فالمراءاة، إن تحكّمت في القلب، تقدر على أن تجرّ معها عيوبًا أخرى. وشرّ عيب ممكن هو أن يتحوّل المرائيّ من المراءاة إلى الإدانة.

المؤمن، أي تلميذ المسيح، لا يمثّل دور المحبّ. هذه هي لعنة المراءاة.

لكنّه يحبّ حقًّا، حتّى يقدر على الانخراط في حياة الكنيسة، ويفعل الخير الذي ينجّيه، وينجّي إخوته.

المحبّة الأخويّة

يفتتح كاتب الرسالة إلى العبرانيّين وصاياه الأخيرة إلى مؤمني الكنيسة، بقوله: «لتبقَ المحبّة الأخويّة ثابتة» (١٣: ١). وهذا يدلّنا على أنّ ما يجمع المسيحيّين بعضهم إلى بعض هو، أوّلاً، إيمانهم بأنّ المسيح ربّهم ارتضى أن يتنازل ويوآخيهم (عبرانيّين ٢: ١١؛ رومية ٨: ٢٩)، أي أنّه تبنّاهم جميعًا لله أبيه. فهم، بالنعمة، أبناء الله، وجميعهم إخوة وأقرباء.

هذه القرابة الجديدة، التي تملأ صفحات العهد الجديد، تغذّيها، في آن واحد، محبّة المؤمنين لله ومحبّتهم بعضهم لبعض وللناس جميعًا. فالمؤمن الحقّ يستقي حياته من هذه المحبّة التي خصّ الله بها العالم كلّه. وهو يعرف أنّ الله يريده أن يعكس هذه المحبّة على الآخرين، أيًّا كانوا، ليبيّن أنّه يحبّه شخصيًّا. فالله، لمّا كنّا أمواتًا وغير مستحقّين، أحبّنا، وأحيانا بحبّه. وليس من محبّة حقيقيّة، نبيّنها للبشر، لا تقول تصرّف الله عينه معنا. أن نميّز بين الناس، أي أن نحبّ مَنْ برأينا يستحقّ محبّتنا فحسب، نكون، من حيث ندري أو لا ندري، نتصرّف بموجب أخلاق هذه الدنيا التي لا تقول دائمًا، أو كلّيًّا، أخلاق الله، أي نكون قد قرّرنا أن ننهل من مَعين لا يروي، ولا ينجّي.

الكلام على المحبّة الأخويّة أساسه، إذًا، محبّة الله لنا. هذا ما أوضحه، ببلاغة، يوحنّا الإنجيليّ، في رسالته الأولى، بقوله: إنّ «الله محبّة» (٤: ٨). والثابت أنّه قصد أنّ الله تجلّى في ابنه تجلّيَ إلهٍ يحبّ، أي يحبّ ابنه

ويحبّنا، ويريدنا أن نعكس بعضنا مع بعض المحبّة التي هي حركة العلاقة في الثالوث القدّوس. ولذلك قال يوحنّا ما ينسجم وقولَ كاتب الرسالة إلى العبرانيّين، وأعني: «إذا قال أحد: «إنّي أحبّ الله»، وهو يبغض أخاه، كان كاذبًا. لأنّ الذي لا يحبّ أخاه وهو يراه لا يستطيع أن يحبّ الله وهو لا يراه» (٤: ٢٠). وهذا يعني أنّ محبّتنا لله مجردُ وَهْمٍ إن لم تظهر، بوضوح، في محبّة الإخوة. وإذا قرأنا رسالة يوحنّا عينها، لنستدلّ على عمق معنى هذه «المحبّة الأخويّة»، نجد مثلاً: «مَنْ قال إنّه في النور، وهو يبغض أخاه، لم يزل في الظلام إلى الآن. مَنْ أحبّ أخاه أقام في النور، ولم يكن فيه سبب عثرة. أمّا مَنْ أبغض أخاه، فهو في الظلام، وفي الظلام يسير، فلا يدري إلى أين يذهب، لأنّ الظلام أعمى عينَيْه» (٢: ٩- ١١). معنى ذلك أنّ المسيحيّة ليست ادّعاء المسيحيّة، بل هي تيّار ينسب الذين يعتنقونها إلى الحياة المحيية. وهذا يظهره، أيضًا، قول يوحنّا، في الرسالة عينها: «نحن انتقلنا من الموت إلى الحياة، لأنّنا نحبّ إخوتنا» (٣: ١٤). وهذا لا يحصره الكلام، بل يظهر في السلوك والمواقف، ولا سيّما في خدمة الفقراء: «مَنْ كانت له خيرات الدنيا ورأى بأخيه حاجةً فأغلق أحشاءه دون أخيه، فكيف تقيم فيه محبّة الله؟ يا بنيّ، لا تكن محبّتنا بالكلام ولا باللسان، بل بالعمل والحقّ» (٣: ١٧ و١٨). وهذا كلّه أخذه يوحنّا عن الربّ الذي أوصى بقوله: «مَنْ أحبّ الله، فليحبّ أخاه أيضًا» (٤: ٢١).

كنّا نودّ أن ننقل كلّ ما كتبه الإنجيليّ الرابع، لنبيّن معنى «المحبّة الأخويّة» التي أوصى كاتب الرسالة إلى العبرانيّين بأن تكون «ثابتة». غير أنّ

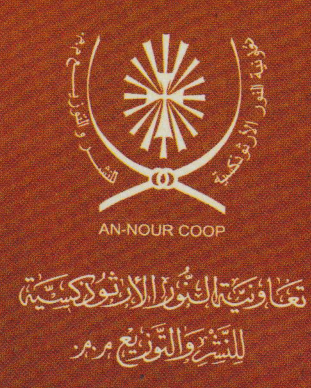
ما يمكن أن نحسبه تعويضًا منه، هو أن يحاول قارئ هذه السطور أن يعود، بنفسه، إلى ما وضعه الرسول يوحنّا، ليغتني، ويزيد على نفعه نفعًا.

يبقى أنّ ما يأخذنا، من الوصيّة المذكورة، هو قول واضعها أن تبقى محبّتنا لبعض «ثابتة» (أنظر أيضًا: ١بطرس ١: ٢٢). ومعنى هذا يندرج في إطار قراءتنا عينها. فبما أنّ محبّة الله لنا ثابتة، واجبنا أن نتمثّل به. ما من شكّ في أنّ الرسول، بقوله «لتبقَ المحبّة»، يقرّ بوجود هذه الفضيلة بين الجماعة التي يخاطبها. فهو يعرف أنّه ليس من موهبة فاعلة، يمكن أن يحوزها المؤمن، لا تكون دعامتها محبّة الله والإخوة (١كورنثوس ١٣). ويعرف، أيضًا، أنّ الإنسان الحيّ يمكن أن يزداد حبّه لله وللناس، ويمكن أن يقلّ، أو يبطل. ولذلك دعا قرّاءه إلى أن يخلصوا للحقّ دائمًا، وألاّ يخامرهم شكّ في ما هم قائمون عليه، أي أن يثبتوا في «المحبّة الأخويّة». والثبات يُطلب لا سيّما في الأوقات العصيبة. مَنْ يحبّ، لا يقبل أن يزعزعه شيء. وهذا يكمّله أنّه لا يرى شيئًا يصلح الإخوة، إذا ضلّوا، مثل محبّته لهم.

إلى هذا، ما أراده الرسول، بقوله، أن يعتقد المؤمنون أنّ المحبّة الثابتة دليل إلى الله. فالله لا يطلب أنّ نحبّ بعضنا بعضًا، لنقي أنفسنا من كلّ عيب، ونبقى تحت رعايته فحسب، بل لنقدر أيضًا، من طريق المحبّة، على أن نجذب البعيدين إليه. إذ ما من أمر، نظير المحبّة، يمكن أن يدلّ على الله في العالم، أو على أنّنا من أتباعه (يوحنّا ١٣: ٣٥). إذا قدرنا على أن نشغل الأرض بتعليمنا وأفكارنا، ورآنا العالم أشلاء مبعثرين يأكلنا الحسد

والبغض والتناحر، يهرب منّا، ويقول إنّنا قوم كاذبون، نقول الشيء، ولا نفعله. أمّا إذا سَمِعَنا، وأتانا، ورآنا نعامل بعضنا بعضًا معاملةً أخويّةً خالصةً، أي بكلّ محبّة، فسيقول إنّ الله في وسطنا حقًّا.

أن «تبقى المحبّة الأخويّة ثابتةً» دعوة إلى أن نملأ حياتنا من محبّة الله التي لا يقولها العالم. فَمَنْ يحبّ أخاه بثباتٍ، يدلّ على مصدر حياته، أي على الله الذي غلب العالم بارتضائه أن يموت ابنه حبًّا، ليشفينا من كلّ شرّ، و«ينقلنا إلى ملكوت ابن محبّته» (كولوسّي ١: ١٣).


AN-NOUR COOP
تعاونية النور الأرثوذكسية
للنشر والتوزيع م.م.


Panarion
Tel : 24143106
01001282
50.00
الأنسان الجديد